نظرة بعين العقل

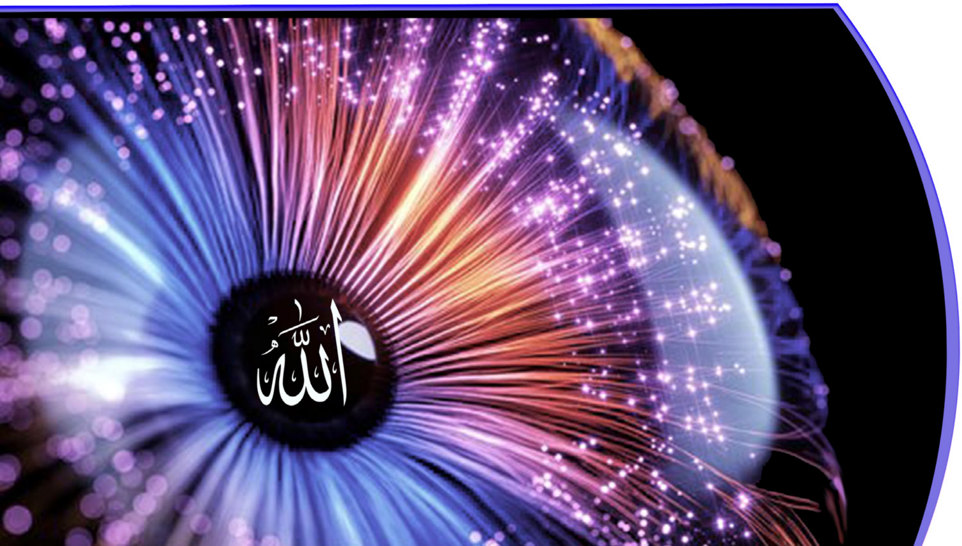

عبد القادر بن صالح الفارسي

الكتاب: نظرة بعين العقل

المؤلف: عبدالقادر بن صالح الفارسي

الطبعة الأولى 2023
جميع الحقوق محفوظة لمؤلف الكتاب

مؤسسة اللبان للنشر
AL-LUBAN PUBLISHING ESTABLISHMENT
(سلطنة عمان - مسقط)
http://lubannews.com
+96899260386
+96871117037
lubanbook@gmail.com

رقم الايداع: 5846 / 2023
رقم الايداع الدولي (ISBN):
978-99969-2-553-5

التصميم الداخلي والغلاف: أحلام الرحبي

إهداء الكتاب...

أهدي هذا الكتاب إلى رفيق عمري وقدوتي، من كان معلماً مربياً واعظاً مطلعاً خطيباً تاجراً مداوياً ناشطاً مضحياً مؤثرا في مجتمعه، وصديقاً مقرباً أنار لي طريق الحياةِ ستة عشر عاماً قد جمعتنا منذ ولادتي حتى وفاته ولا يزال حاضراً ملهِماً في حياتي.. إلى والدي العزيز رحمه الله.

أسأل الله أن يرزقني صلاحه وتقواه..

أشكركم على إهدائكم إليّ كتابكم القيم (نظرة بعين العقل)، وقد تصفحته فألفيته سفرا حافلا بأنواع الفهوم المستفادة بتعميق الفكر والنظر في حقائق الوجود، لأجل النفاذ من مظاهرها إلى بواطنها، ومن جلاياها إلى خفاياها، لاستلهام الحكمة، واستدرار المعرفة، والتمكن من التأمل في الظواهر الكونية للإفضاء من الملك إلى الملكوت، والاطلاع على أسرار الله تعالى في الخلق، لتبقى شعلة الإيمان متوقدة لا تخبو جذوتها، ولا ينفد وقودها، ولا ينقطع شعاعها.

وهذا كله راجع إلى توفيق الله تعالى الذي خلق فسوى وقدر فهدى، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فاحمد الله تعالى على التوفيق، وواصل شكره بتبصير عباده بما غمض من هذه الحقائق عن أفهامهم، فإن أعظم شكر لنعمة الله تعالى وصل عباده المنقطعين به ورد الشاردين إليه، وإزالة الغشاوة عن ألباب الغافلين عنه، وحسبك شاهدا على ذلك حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**».

وأسأل الله لك النجاح والتوفيق للمضي قدما في هذا المنهج المستقيم، الذي هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

أخوكم / أحمد بن حمد الخليلي
٢ ذو القعدة ١٤٤٣هـ

الفهرس

المقدمة ٨

تمهيد ١٠

١ - اللحظة الفارقة ١٣

٢ - لماذا نؤمن بالغيب؟ ١٩

٣-آية الشجرة ورسالتها الخالدة................................. ٢٥

٤ - وحي الجمال ٣٣

٥-ماذا لو كنت مخلوقا آخر؟!...................................... ٣٦

٦-قدر الله وحرية الانسان ٤١

٧ - هل أنت قاعد أم مجاهد في سبيل الله؟.......... ٥٠

٨-علم الكتاب وأسرار الكون ٥٢

٩-لم لا تُنفذ عدالة السماء في الأرض؟!.................. ٥٧

١٠ - مكتمل في نسخته الأولى ٦٢

١١ - التواصل غير المحسوس مع الله ٦٥

١٢ - حين تنطق أداة الجرم! ٧٠

١٣ - فتى الجنة ٧٢

١٤ - العقل المعطوب ٧٤

١٥ - دلالات العبادة وقيمها ٨٤

١٦ - محاور التحدي في سورة الواقعة ٨٨

١٧ - مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٩٥

١٨ - لوحات الكون ٩٩

١٩ - الأمان في اختلاف الخلقة ١٠٣

٢٠ - مخلوقات الجنة ١٠٧

٢١ - بعض ملامح الحياة التي أريدها ١١١

٢٢ - كلا والقمر ١١٤

٢٣ - وما أدراك ما العقبة! ١١٦

٢٤ - التيسير لليسرى والتيسير للعسرى ١٢١

٢٥ - الهداية لمستحقيها فقط ١٢٤

٢٦ - شهادة ذرية بني آدم بربوبية خالقهم ١٣١

٢٧ - الغرائز تفجر الطاقات................................ ١٣٨

٢٨ - متعة البغي في الحياة ١٤١

٢٩ - أفراح الدنيا وأفراح الآخرة ١٤٥

٣٠ - تعرف على كيانك ١٥٠

٣١ - أحرجتني زهرة! ١٠٧

٣٢ - فمستقر ومستودع ١٠٩

٣٣ - طاعة المستسلم ١٦٢

الخاتمة ١٦٦

المراجع ١٦٨

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أبهرت عقولَ المتأملين براهينُ قدرته، وشدت أنظارَ المبصرين شواهدُ عظمته، وهتفت في آذان السامعينَ ألسنُ أدلته والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ومذكرًا للغافلين وهاديًا إلى الصراط المستقيم.

أما بعد: أضع بين يدي القارئ الكريم كتابي هذا لا لتقديم مادة علمية، ولكن لعرض خواطر إيمانية هي أقرب لنظرات بعين عقلٍ يقرأ عددًا من الرسائل المبطنة التي تحملها المخلوقات من حوله، وقد أشرت إلى بعض زوايا لوحات الكون ليلتفت إليها المتأمل فيكتشف ويرى ما لم يكن قد رآه من قبل، رغم مروره المتكرر على ذات المشهد أو الزاوية، وقد يرى ما لم أره أنا أو يراه الآخرون حين يعطي عقله وفكره حرية التحليق دون قيود التأويل السابقة أو التعليلات أو التفاسير المقترنة بذلك الشيء أو الموضوع أو المشهد، وقد تمكن جورج دانتزغ George Dantzig عالم الرياضيات الأمريكي من حل معضلتين إحصائيتين عجز العلم عن حلهما قد عرضهما المحاضر على السبورة فاعتقد بأنهما واجب منزلي، إذ دخل

القاعة متأخرًا فنسخ المعادلتين ثم اجتهد وبحث حتى أوجد الحل، وقال لم أكن لأبذل جهدًا لو كنت أعلم أن من سبقني عجز عن حلهما. فكثير من آيات الكون لا تُقرأ لأنها أُوِّلت من قبل وكثير من إضاءات القرآن لا يُلتفت إليها لأن مجموعة من المفسرين قد اتفقوا على تفسيرها بمعنى واحد، وحيث إن خواطر الإيمان تطرق العقل دون استئذان وتخاطب الروح دون تنسيق مسبق فقد أوردتها في هذا الكتاب دون ربطها بتبويب أو تسلسل معين، فهي بمثابة تحليق حر للعقل يبصر ما وقعت عليه عينه في رحاب كون فسيح وخلق بديع ومعنى بليغ، فرب كلمة في القرآن، ورب زهرة في بستان تتضمن معجزة لا يمكن أن تقرأ ولا تشاهد إلا بالعقول المبصرة، وما أكثرها وما أعظمها من حولنا ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(سورة البقرة: ١٦٤) أسأل الله أن تحقق نظرات هذا الكتاب قيمة إيمانية لقارئها معتذرًا عما فيها من قصور، فآيات الله عظيمة لا يدركها الناظر إلا بقدر اجتهاده،وما هو إلا اجتهاد متواضع فأسأل الله القبول.

تمهيد

للتأمل متعة، والتأمل هو التنزه في واحة الإيمان الغناء، التأمل في خلق الله، والتأمل في كتاب الله، والالتفات إلى مراد الله يحلق بالإنسان في فضاء الإيمان الفسيح، ويحرره من عبودية التقليد ويقربه إلى الله؛ فيخرجه بهذا التأمل من زمرة الصم عمي القلوب؛ فيبصر قلبه بنور الله، ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦)، فاستخدام العقل والنظر به، فيه احترام وإجلال لخالق العقل، إذ إن المبصر بعقله يرى في المخلوقات عظمة خالقها وبارئها ما لا يراه الراكع الساجد في صلاته، فحين ينظر المرء إلى طائر بعين عقله ينفتح له باب التأمل والتساؤل: كيف خُلق؟ كيف نُسقت ألوانه وثبتت وتوارثت في أجياله لم تتغير منذ الأزل؟ وحين يحرك رجليه فيمشي ثم يرفرف بجناحيه فيطير أمام عين العقل، يتجلى للمبصر عظمة من سوَّاه وركَّب عظامه وريشه وذيله وخف وزنه، ومن زوده بمحرك الأرجل ومحرك الأجنحة، بل إن المتأملين قد خرجوا من التفكر والتأمل في تركيب المخلوقات بأفكارٍ قد صَمموا بها الرافعات والناقلات والطائرات والمعدات... المتأمل في أي شيء يسمو ويتحرر ويتقدم، فالتأمل هو إعادة النظرة إلى الشيء والتركيز فيه لسبر أغواره وقراءة رسالته، بالتأمل والتفكر وحده يتحرر

الإنسان من غياهب جهل وضلال تلك المعتقدات التي رُسمت ونُقشت في عقول من ورثوها من آبائهم وأجدادهم، تلك الضلالات التي جعلت من بشر حر بشرًا يعبد بقرة ويشرب بولها مؤمنًا بأنها آلهته! ترى لو حرر أحدهم فكره يومًا ونسف ما قيل له عن البقرة ثم نظر إليها مرة أخرى مقارنًا قدراته بقدراتها، لوجد نفسه ينطق وهي لا تنطق، قد ذُللت له فهو مالكها وسيدها، يستخدمها ويأكل لحمها ويشرب لبنها، لوجد بني جنسه يصنعون ويبنون ويتعلمون وبني جنسها لا يصنع ولا يبني ولا يتعلم، ترى لو أبصر بعين عقله يومًا، هل سيكتشف درجة جهله وحماقته وظلمه لنفسه؟! بحرية التأمل والتفكر نرتقي ونكتسب معارف جديدة، فحتى القراءة وحدها لا تكفي لفهم كتاب علمي يتحدث عن معلومات وحقائق عليا وعن أنباء مستقبلية، إلا بتأمل ما أشار إليه من مؤيدات ودلائل وقرائن، ولعل أفضل الكتب التي تستحق التأمل والتدبر هي تلك الكتب السماوية التي أتت من حيث أتى أصل الإنسان وأصل كل شيء، فلا شك أنها تحمل دليل الحياة ومرشدها، تتضمن شرائعها وأحكامها وتفاصيل الماضي والحاضر والمستقبل، فهي الدليل والمرشد، بيد أن هذه الكتب السماوية خلا القرآن الكريم، قد تطاول عليها الإنسان بجهله فحرفها وغيرها، قال تعالى: ﴿فَوَيلٌ لِلَّذينَ يَكتُبونَ الكِتٰبَ بِأَيديهِم ثُمَّ يَقولونَ هٰذا مِن عِندِ اللَّهِ لِيَشتَروا بِهِ ثَمَنًا قَليلًا فَوَيلٌ لَهُم مِمّا كَتَبَت أَيديهِم وَوَيلٌ لَهُم مِمّا يَكسِبونَ﴾ (البقرة:٧٩) وحفظ الله -جل وتعالى- لنا القرآن، فينبغي أن نطلق العنان لفهمه وفق ضوابط التفسير وقواعده، ولا نتقيد بفهم

الآخرين وتفسيرهم بل نستعين باجتهادهم، فلربما لامس عقولَنا فهمٌ لم يلامس عقلَ أحدهم، وربما لامس عقولهم ما لم يلامس عقولنا، إذ يحمل القرآن معانيَ وخواطرَ إيمانية تتفتح كالزهرة حين يلامسها أو يصيبها وابل في موسمه، وكذلك وابل التأمل حين ينصب على آية في الكون أو في القرآن، يفتحها الله لقلب المتأمل فيقرأ فيها ما لم يقرأه الآخرون، ولكم دعا القرآن عقولنا لتنظر في معجزات نعدها من طبيعة الحياة! فحين نقرأ قوله وجل وعلا: ﴿أَفَرَءَيتُم ما تَحرُثونَ ۝ ءَأَنتُم تَزرَعونَهُ أَم نَحنُ الزّٰرِعونَ ۝ لَو نَشاءُ لَجَعَلنٰهُ حُطٰمًا فَظَلتُم تَفَكَّهونَ﴾(الواقعة: ٦٣- ٦٥)، يتجلى لنا أن دور المزارع، هو القيام بتهيئة الأسباب فقط من حرث للتربة ووضع للبذرة وتغطيتها وريها، أما الزارع والمنبت وباعث الحياة في البذرة الميتة هو الله وحده، فكم من بذرة وضعها مزارع لم يأذن الله لها فلم تنبت! ولكي يدرك القارئ الكريم فحوى هذه الدعوة، أدعوه مشكورًا غير مأمور ليطلع على معجزة الشجرة الخالدة ضمن نظرات هذا الكتاب، ثم علينا أن نفتح كل دعوة وجهها الله إلينا، فحين نقرأ آية تبدأ باستفهام فلنعلم أنها دعوة للفت نظرنا لتدبر موضوعها، (أأنتم)، (أفرأيتم)، (أفلم)، وكذلك القسم فنعلم أن المقسَم به شيء عظيم، فنبحث عن عظمته لنرى فيه ما لم نره من قبل، فالتفكر والنظر والتأمل والتدبر عبادة ترتقي بقدراتنا وتسمو بإدراكنا، وتجعلنا نؤمن بالله إيمان القناعة والحب وليس إيمان القطيع المجرد من الروحانية.

١ - اللحظة الفارقة

أعني بهذا المصطلح تلك اللحظة المنتظرة القادمة لا محالة، وهي لحظة بدء كل منتظر؛ إذ يتغير الحال بقدومها من فكر وتصور يشغل الذهن إلى واقع تعيشه النفس وتتفاعل معه المشاعر، فهي اللحظة الفاصلة بين واقع مشهود وبين غيب منتظر، ولعل لحظة الانتقال إلى عالم الغيب هي اللحظة الفارقة التي تشغل كل متفكر ومتأمل، إذ كيف به ينتقل من طور معلوم إلى طور مجهول، من حياة قد مارسها إلى حياة يجهلها؟! هل يمكن أن يتصور بشر كيف سيكون في مرحلة الغيب القادم وهو غيب البرزخ؟! فبالنسبة له غيب مبهم مرعب لم تسرد له تفاصيل كما سُردت عن غيب البعث والنشور والحساب ثم الجزاء والحياة الخالدة، فقد أشار إليه المولى إشارة تبين وجوده بقوله -جل في علاه- ﴿لَعَلِّي أَعمَلُ صٰلِحًا فيما تَرَكتُ كَلّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِن وَرائِهِم بَرزَخٌ إِلىٰ يَومِ يُبعَثونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، وقد جاءت السنة النبوية لتعطي بعض تفاصيل السؤال وملامح المكان وحالاته، كونه روضة من رياض الجنة أو غير ذلك، لذلك فالبشر في قلق حين ينظرون إلى البرزخ بمناظيرهم المختلفة وأفكارهم المبتورة، حيث لا يمكن أن تمتد لتتصور ماهية

حياة البرزخ والحياة الأخرى لأنه غيب لم يطلع عليه بشر، ولكي نكشف حقيقة هذا الخوف غير المبرر -إن صح تعبيري- دعونا نَعِش مرحلة حياة افتراضية قد عاشها الجنين في بطن أمه، لنتصور بإدراكنا الواعي ما قد يدور بذهنه من مخاوف الحياة خارج رحم الأم لو علم أنه سيخرج منه بعد تمام الأجل المعلوم لدينا وهو تسعة أشهر، وربما كان مجهولًا بالنسبة له تمامًا كجهلنا بساعة خروجنا من بطن الدنيا التي نعيش فيها، علمًا أنه مجرد تصور، فلرُب أن الجنين لم يبلغ مرحلة التصور والخوف وهو في بطن أمه والله أعلم بذلك، ولكنه مجرد افتراض لإيضاح فكرة، فلو تأملنا الظروف التي تحيط بالجنين في دار حياته لوجدناها ظروفًا مختلفة تمامًا عن ظروف الحياة الأخرى التي سينتقل إليها بعد الولادة، ولك أن تتصور الآن درجة الخوف والهلع التي سيعيشها ذلك الجنين لو أدرك أنه سيفارق يومًا تلك الحياة الناعمة في رحم أمه ليخرج منها إلى حياة لا تتوفر فيها أدنى مقومات الحياة بالنسبة للحياة التي يعيشها، تمامًا كما نتخيل نحن حياتنا في البرزخ أو القبر، إذ كيف سيكون حالنا في مرحلة قد لا تتوفر فيها أدنى مقومات الحياة التي نتصورها من وجهة نظرنا؟! فالجنين يعيش في ظلام دامس داخل الرحم والحياة خارجه نور وضياء لا يناسبه! الجنين يسبح في حوض ماء يحميه من كل عوامل الجفاف والحرارة والبرودة والصدمات فكيف يتصور حياته حين ينتقل إلى دار لا يحاط فيها بالماء بل سيكون محيطه هواءً وفضاءً مملوءًا بالمخاطر والأجسام التي قد تصدمه

أو يقع عليها فيتهشم! الجنين تكيف أن يكون في درجة حرارة ثابتة في رحم الأم، فكيف له أن يتصور حياة أخرى في درجة حرارة متقلبة قد تكون منخفضة أو مرتفعة كما يتصور أحدنا كيف سيعيش خارج كوكب الأرض المعتدل في حرارته بالنسبة لتركيب خلقتنا، كيف له سيواجه خشونة الأرض أو الفراش، كيف للجنين أن يتخيل حياة لم يجربها بعد، فغذاؤه يأتيه مهضومًا موزونًا من خلال حبل السرة؟! فكم هي درجة الخوف حين يقال له بأنه بمجرد خروجك من سعة الرحم سيُقطع عنك مورد الحياة الذي كان سببًا في نموك وحياتك، سيُقطع عنك حبل السرة الذي لو قطع عنه في بطن أمه لمات! ترى كم هي درجة الهلع والخوف الذي سينتابه من جراء هذا الأمر؟!

لكل تلك الاعتبارات أقول لك لا تقلق ولا تكترث... فقط وكِّل الموضوع لخالقك لتتبدد جميع مخاوفك، فما هي إلالحظات فارقة تتغير فيها كل المفاهيم، تنقلب فيها كل الاعتبارات، تتبدد فيها كل المخاوف، تتلاشى كل تلك المقاييس والمعايير التي تسيطر على عقولنا وتفكيرنا، تمامًا كما انقلبت وتلاشت كل تلك المعايير الرحمية التي قضاها الجنين في حياة التكوين التي عاشها لمدة تسعة أشهر، لقد انتقل إلى حياة أخرى جديدة، لا تصلح فيها مقاييس الحياة السابقة ولا مقوماتها، ولا تشملها حتى التصورات المبنية عليها، الجنين لو تنفس قبل خروجه من رحم الأم بخمس ثوانٍ لدخل الماء في رئتيه ومات، ثم تأتي اللحظة الفارقة

وهي خروج رأسه إلى الدنيا، فلو تأخر ثواني عن التنفس فيها لمات، من أعطاه أمر التنفس؟! من أرشده؟! من هداه؟! من أوحى لعقله أن يصدر إشارة البدء لرئتيه بالعمل في تلك اللحظة بالتحديد وهو جنين لا يدرك ولا يستوعب ولم يخطر بباله بأنه سيحتاج إلى مادة جديدة لم تكن متوفرة في رحم أمه وهي الهواء؟!! لحظات فارقة أدخلته حياة جديدة، لم يكن في حياته السابقة يعرف معنى الضياء والنور والبصر، فإذا بعينيه تبصران ليرى كونًا فسيحًا هو أوسع من ذلك المكان الذي كان يحويه والذي كان بالنسبة له الكون بأكمله، فأُخرج منه وهو يصرخ مرعوبًا، لم يكن يتصور بأن جسمه مسامي قد زُود بجهاز رشح يخرج عرقًا بقدر حاجة الجو المحيط به ليحفظ درجة حرارته كتلك التي كانت في حياته السابقة رغم تغيرها في محيط حياته الجديدة، لم يخطر بباله أنه سيعيش لحظة بعد قطع حبل السرة الذي كان حبل الحياة بالنسبة له، وإذا باللحظة الفارقة تكشف له عن عالم آخر ينتظره، قد هُيئت له ضيافة تناسب حاجة كل يوم من مراحل نموه في حياته الجديدة، تتمثل في ثديين قد زودا برأس لطيف يتناسب مع شفتيه الناعمتين، مملوءين بشراب يكسبه مناعة في أيامه الأولى، كما تزاد فيه عناصر الغذاء يومًا بعد يوم تماشيًا مع نموه وحاجة عظامه وجسده حتى يكمل حولين من الرضاعة، ثم تخرج له أسنان تمكنه من الاعتماد على نفسه بالغذاء، كل هذه المعطيات كانت غيبًا بالنسبة له كما هي غيب لنا تلك الحياة القادمة.

الخلاصة: إن الخالق -تبارك وتعالى- قد هيأ لكل مرحلة حياة ظروفًا خاصة تصلح معها، لا يدرك الإنسان ماهيتها وكيف سيستخدمها ودرجة حاجته إليها، فالبشر عاجزون عن إدراك أسرار غيب الله كما أخبر الخالق -جل في علاه- عن عجز تلك الآلهة الصماء التي اتخذها الحمقى والبلهاء ﴿وَاتَّخَذوا مِن دونِهِ ءالِهَةً لا يَخلُقُونَ شَيئًا وَهُم يُخلَقُونَ وَلا يَملِكُونَ لِأَنفُسِهِم ضَرًّا وَلا نَفعًا وَلا يَملِكُونَ مَوتًا وَلا حَيوٰةً وَلا نُشورًا﴾ (الفرقان:٣) فالموت الذي نتخيله عند خروجنا من الدنيا هو نفس الموت الذي كان يتخيله الجنين عند خروجه من الحياة في رحم أمه، ولكن للحقيقة قول آخر ومنطق آخر، فالموت الذي كان يتخيله الجنين في حقيقته ولادة وكذلك يسميها البشر، لأنهم يعيشون في العالم الآخر الذي يستقبل ذلك الخارج من غياهب الرحم وظلماته، كذلك موتنا وخروجنا من عنق الدنيا الواسعة بالنسبة لنا، الضيقة جدًّا بالنسبة للعالم الآخر الذي ينتظرنا، فيسمى موتنا لديهم ولادة جديدة، قد هيئت لنا ظروف نراها في اللحظة الفارقة ونعيشها كما عاش الجنين، فإذا بنا نرى أشياء لم تكن لدينا القدرة على رؤيتها حين كنا في الدنيا، وأول ما سنراه هم الملائكة حيث يكشف عنا الغطاء في اللحظة الفارقة ﴿لَقَد كُنتَ فى غَفلَةٍ مِن هٰذا فَكَشَفنا عَنكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَومَ حَديدٌ﴾ (ق:٢٢)، ولك أن تتخيل أيها المؤمن بربك أمارات حياة جديدة قد أمر الله ملائكته باستقبالك فيها حسب درجة صلاحك ﴿الَّذينَ تَتَوَفّٰهُمُ المَلٰئِكَةُ طَيِّبينَ يَقولونَ سَلٰمٌ عَلَيكُمُ

ادخُلُوا الجَنَّةَ بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾(النحل:٣٢،٣٢) تخيل أن أول كلام تسمعه بعد اللحظة الفارقة هذا الكلام، ثم يعطونك جرعة من الأمان والاطمئنان والمواساة والتثبيت ﴿إِنَّ الَّذينَ قالوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ استَقٰموا تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ المَلٰئِكَةُ أَلّا تَخافوا وَلا تَحزَنوا وَأَبشِروا بِالجَنَّةِ الَّتى كُنتُم توعَدونَ ۝ نَحنُ أَولِياؤُكُم فِى الحَيوٰةِ الدُّنيا وَفِى الآخِرَةِ وَلَكُم فيها ما تَشتَهي أَنفُسُكُم وَلَكُم فيها ما تَدَّعونَ ۝ نُزُلًا مِن غَفورٍ رَحيمٍ﴾(فصلت:٣٠-٣٢) ثم تأتيك ملامح الاستقبال البهيج ﴿فَأَمّا إِن كانَ مِنَ المُقَرَّبينَ ۝ فَرَوحٌ وَرَيحانٌ وَجَنَّتُ نَعيمٍ﴾(الواقعة:٨٩) ما هذه الحفاوة والتكريم؟! فقط لأنك مؤمن صالح قد آمنت فصدقت فعملت لهذه المرحلة واستعددت لحياتك القادمة، فما هي إلا لحظة فارقة فدعها على الله، وتقرب إليه بصالح الأعمال ولا تقلق.

٢ - لماذا نؤمن بالغيب؟

لماذا ابتلانا الله بالإيمان بغيب لا نراه ولا نسمعه؟ لِمَ لمْ يكن الابتلاء والاختبار فيما هو مشاهَد مدرك بالحواس، لماذا لا يكون الإنسان تقيًّا إلا إذا آمن بالغيب؟ ألا يكفي لنيل درجة التقوى أن ينفذ تعليمات الرسل من صلاة وزكاة وصوم وحج ويتقيد بالحلال والحرام؟ ألا يكفي كل هذا بأن يصبح الملتزم به عبدًا صالحًا تقيًّا؟ واللافت في الأمر بأن كل ما سبق لا يؤدي إلى تقوى صاحبه إلا أن يكون مؤمنًا بالغيب، بل لا يكون مسلمًا ولا مؤمنًا ولا تقيًّا إلا إذا آمن بالغيب؛ لذا فالغيب هو أول موضوع يُطرح في كتاب الله بعد الفاتحة في مطلع سورة البقرة، فيبدأ بهذه القضية المحورية التي أُرسلت من أجلها الرسل وبنيت عليها جميع محاور القرآن الكريم، فيقول عز من قائل﴿ذٰلِكَ الكِتٰبُ لا رَيبَ فيهِ هُدًى لِلمُتَّقينَ﴾(البقرة:٢)، من هم يارب؟ ﴿الَّذينَ يُؤمِنونَ بِالغَيبِ وَيُقيمونَ الصَّلوٰةَ وَمِمّا رَزَقنٰهُم يُنفِقونَ﴾(البقرة:٣)، فالذي لا يؤمن بالغيب لا يُعد تقيًّا كي تُقبل صلاته ونفقته وأعماله الصالحة، فقبل أن تولوا وجوهكم مصلين عليكم بالإيمان بالغيب أولًا ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(البقرة:١٧٧)، ويُعرَّف الإيمان بأنَّه التصديق بالأمور الغيبية، فذات الله غيبٌ

بالنسبة لنا، وملائكته غيبٌ، والآخرة غيبٌ، والقدر غيبٌ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(الملك:١٢) وقال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾(ق:٣٦-٣٧) والغيب هو الحقيقة الخالدة القائمة الموجودة ولكنها غيب بالنسبة للإنسان المحدود بقدراته البسيطة وحواسه المحدودة، فلا ينفي وجودَ الغيب جهلُ الإنسان وعدم إدراكه له، ونعود إلى قضيتنا وسؤالنا: لماذا كان الإيمان بالغيب هو أساس التقوى؟

أخي القارئ الكريم: إن تقدم الإنسان في حياته الدنيا لم يكن ليحدث لولا تفكيره واجتهاده في البحث عن الغيب، إذ إن كل ما يجهله الإنسان يعتبر غيبًا بالنسبة له، فشغف الإنسان وحبه وارتباطه بالغيب جعله يرتقي، ومن أجل القادم يبذل ويضحي ليعرف أو يكتشف أو يمتلك أو يتعلم ما هو غيب بالنسبة له، والغائب مرغوب، بل القادم هو الحلم المفتوح فيتطلع فيه المرء إلى تحقيق سعادة أو رغبة ما، فإذا تحقق ذلك القادم تجددت لدى الإنسان دواعٍ تجذبه لتحقيق أمل جديد أو غيب قادم، وهكذا تستمر متعة الحياة وتزيد، كلما ارتبطت بآمال جديدة ورغبات جديدة وطموحات دافعة لاكتشاف الأفضل والأسرع والأسهل، فكل ما في الغيب يعتبر أجدى وأنفع مما في الحاضر لأن واقع الغيب افتراضي، فيضفي عليه المتعلق من آماله وخياله ما يجعله مثاليًّا براقًا، فيبذل الغالي والنفيس من أجل تحقيقه.

ولما كان الغيب هو كنز المعرفة المجهول، وهو قدر الله في الكون الذي يحتوي قوانين الطبيعة ونظمها ونظريات عملها وخصائص أرضها وجوها؛ فقد جعل الله العلم والمعرفة وسيلة الكشف عن ذلك الغيب، فقبل قرون كانت حياة البشر شبه بدائية، لا يمتلكون من وسائل النقل والتواصل والصناعة إلا ما ورثوه عن جهد من سبقهم، فأخذت الأمم تبحث في العلوم لتكتشف ما كان غيبًا من نظريات وتطبيقات، وعند التوصل إليها ارتقت بها خطوة بخطوة، فكل ما تحصلت عليه من غيب صار علمًا تبنى عليه أبحاث عن غيب قادم من المعلومات والتطبيقات، وما تزال ترتقي كلما ازداد علمها وقوة بحثها ليسفر لها الغيب عن مفاجآت مذهلة، لذلك تجد الأمم التي تصرف على البحث عن مجهول، أو غيب الفيزياء أو الكيمياء أو الأحياء، أو كل مجال من مجالات المعرفة، هي أمم رائدة تقود زمام التطور والتقدم على الأرض، والأمم التى انشغلت عن البحث العلمي ولم تصرف لتحصيل غيب العلم بقيت في مكانها أمم مستهلكة متخلفة!

الإيمان بالغيب هو الإيمان بالله، والإيمان بالله هو صمام الأمان والضبط والرقابة على وجه الأرض، فكلما ازداد عدد الأنفس المؤمنة بالله الذي سن الثواب والعقاب؛ كلما ازداد انضباط البشر وانتشر الأمن والسلام في الدنيا، وكلما اجتهد المتأمل ارتقى وسمت روحه وازداد إيمانه بخالقه، وارتفع من وحل الانحطاط والتعلق بما سواه من المخلوقات

الضعيفة؛ فصار قويًّا بقوته وعزيزًا بعزته ومعصومًا بعصمته، فيترفع عن الرذائل والأوهام والخرافات؛ فتقوى بنفسه الرقابة الذاتية التي تجعله إنسانًا مستقيمًا؛ فيرتفع شأنه في الأرض والسماء.

وقد ملأ الله الأرض والكون بآيات وأدلة وشواهد تدل على وجوده سبحانه، وتدعوهم إلى الإيمان به والعمل لغيب قادم ينتظرهم هو الأجمل والأرقى، كما أنزل إليهم كتبًا سماوية ترشدهم إلى الغيب وتدلهم على أبوابه ومعالمه، وساق فيها من الأدلة والبراهين الساطعة، والأمثلة والحجج الواضحة، وأرسل لهم رسلًا مرشدين ومبشرين بأن ذلك الغيب الجميل ينتظرهم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللَّهِ فَضلًا كَبِيرًا﴾(الأحزاب:٤٧) ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءامَنوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ أَنَّ لَهُم جَنّٰتٍ تَجري مِن تَحتِهَا الأَنهٰرُ كُلَّما رُزِقوا مِنها مِن ثَمَرَةٍ رِزقًا قالوا هٰذَا الَّذي رُزِقنا مِن قَبلُ وَأُتوا بِهِ مُتَشٰبِهًا وَلَهُم فيها أَزوٰجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُم فيها خٰلِدونَ﴾(البقرة:٢٥).

ليست البشارة بجائزة أو مكافأة مجزية، بل بحياة نعيم خالدة لا تنتهي، إذ لا يتصور العقل البشري أمنية أعلى وأغلى من تلك الأمنية لأن فيها الملك والنعيم والخلود؛ لذلك يتضح جليًّا بأن دعوة الله لنا للإيمان بالغيب إنما هي دعوة للسمو والارتقاء والتميز عن سائر المخلوقات غير العاقلة والتي لا تعرف إلا أخضر تقتات عليه، أو فريسة تلتهمها، أو ماءً تشربه، إضافة إلى ما أودع فيها من فطرة التزاوج وبناء الأعشاش والجحور والأوكار.

ودعوة الله للإيمان بالغيب إنما هي دعوة لنا للارتقاء والسمو، وهي شرف يفرقنا عن البهائم التي لا تفكر، فكل مخلوق لا يدرك بعقله أن له خالقًا، يعد بهيمة لا تدرك، أو بشرًا يتغابى ويتجاهل، لأنه لو فكر قليلًا لآمن بخالقه حيث يدرك تمامًا أنه خُلق من غير حول ولا قوة له ولا لأمه ولا لأبيه، ويدرك أنه لا يوجد مخلوق في الكون حي أو جامد قد خلق نفسه، فلا بد له من خالق، لذلك كان الإيمان بالغيب معيار تقييم العقول المدركة كي تُقبل من أصحابها شعائر العبادات كالصلاة والزكاة، فإذا آمنت حققت شرط القبول، فهي لا تُقبل إلا من أصحاب العقول وهم المؤمنون بوجود خالقهم، وكذلك لن يقيم الصلاة إلا مؤمن بخالق يصلي إليه فارتبطت هذه بتلك، وإلا فلمَ الصدقة ولمَ الإحسان ولمَ الاستقامة إلا لنيل رضا من أمر بذلك؟ ومن سقط الإيمان بالغيب من قلبه سقط منه خوف العاقبة فتحلل من قيم وأخلاق الإنسانية.

الخلاصة: إن درجة قبول الأعمال ودرجة الأخلاق مرتبطة بدرجة الإيمان بالغيب، كذلك سلامة البشرية ونشر الأمن والاطمئنان على سطح الأرض مرتبط بالإيمان بالغيب، فكلما زاد الإيمان زادت عقيدة الإدراك بوجود رقيب محاسب مطلع؛ فينضبط به السلوك وتنجو البشرية من جرائم المنفلتين، فإذا غاب الإيمان بالغيب غابت معه عقيدة البعث والنشور والحساب والعقاب؛ لتحل محلها عقيدة الإلحاد وإنكار وجود الخالق؛ فتنفلت النفوس من عقالها فتحدث الدمار الذي أحدثه منكرو

وجود الله وإن ادعوا العدالة والمساواة، ولعل جرائم الملحدين في إبادة البشر هي خير شاهد، كما فعل "ماوتسي تونج" الذي قتل قرابة ٧٩ مليونًا من أبناء شعبه المعارضين لقناعته وكذلك "ستالين" الذي قتل قرابة ٤٩ مليونًا من أجل تطبيق برامج وأفكار يؤمنون بها، وكذلك غيرهم من المنفلتين الذين أبادوا شعوبًا وأممًا عارضت أفكارهم.، ولعل جرائم التعذيب الوحشية التي لا تخطر على بال بشر هي خير شاهد على انفلات نفوس الملحدين ،[1]

1. مصرع الالحاد، الشيخ أحمد الخليلي. ج١، ٨٦-٨٨..

٣ - آية الشجرة ورسالتها الخالدة

كل ما خلق الله وسخره على وجه الأرض آيات تحمل رسائل تدعو أصحاب العقول إليه، ولكن أكثرهم لا يكلف نفسه عناء فتح تلك الرسائل، فينظر إليها من الخارج دون فتحها وقراءة ما فيها، ولعل أعظم تلك الآيات آية الشجرة وما تحملها من رسالة عظيمة، لو فتحها المتأمل لاندهش بالمعجزات التي تحملها وتدعوه للإيمان بالخالق الواحد الذي جعل كل ما في الكون يرشد إليه ويدل عليه!

فلنذعن قليلًا إلى داعي التأمل، ولنقرأ رسالة الشجرة الخالدة لننظر إليها هذه المرة بعين عقلنا، فلا شك أن النظرة ستختلف، سنرى فيها ما لم يره زارعها والمعتني بها، وما لم يره المبصر العادي أو المنتفع بظلها أو جاني ثمرها، فالمتأمل له نظرات ووقفات وقراءات وإضاءات يسقطها على تلك الشجرة... هل خلقت نفسها؟ هل لحارثها قدرة على إنباتها وإخراجها؟ هل تملك من أمرها شيئًا في تكوين نفسها وحياتها؟ أم أن هناك خالقًا فوق كل ذلك؟!... لماذا خُلقت؟ هل لتعطي الظل والثمر؟ أم لتهدي العقول إلى صانعها؟ ألا تحمل تلك الشجرة رسالة لبني البشر؟ هل بالضرورة أن يكون الرسول ناطقًا متحدثًا بلسان فصيح؟ ألم تأتِ هذه

الشجرة بمعجزة تثبت أنها آية من ربها لتنبه القلوب الغافلة؟ أي معجزة وأي برهان أقوى من برهانها؟! فحين يأتي رسول من البشر بمعجزة، كعصى نبي الله موسى التي أبهرت السحرة، أو معجزات نبيه عيسى -عليهما السلام- من إحياء الموتى وشفاء الأسقام، تجد تأثير تلك المعجزات محدودًا فيمن شاهدها وعاش لحظتها، بل إن أكثرهم لم يتعظ بها، فقالوا عن موسى ساحر، وكذلك عن عيسى وغيرهم من الرسل﴿كَذٰلِكَ ما أَتَى الَّذينَ مِن قَبلِهِم مِن رَسولٍ إِلّا قالوا ساحِرٌ أَو مَجنونٌ﴾(الذاريات:٥٢) فليست القضية بقوة المعجزة الحاضرة أو المشاهدة أو الملموسة، بل القضية في متلقي المعجزة، ﴿وَلَو نَزَّلنا عَلَيكَ كِتٰبًا فى قِرطاسٍ فَلَمَسوهُ بِأَيديهِم لَقالَ الَّذينَ كَفَروا إِن هٰذا إِلّا سِحرٌ مُبينٌ﴾(الأنعام:٧) ﴿وَلَو فَتَحنا عَلَيهِم بابًا مِنَ السَّماءِ فَظَلّوا فيهِ يَعرُجونَ﴾ ﴿لَقالوا إِنَّما سُكِّرَت أَبصٰرُنا بَل نَحنُ قَومٌ مَسحورونَ﴾(الحجر الاية:١٤-١٥) إذن فالغافل والساهي والجاهل والمتكبر قد صد قلبه عن الإيمان فلا يؤمن ولو كلمه الرسل وأتوا إليه بمعجزاتهم، ومن نظر بعين عقله فإن رسل الله موجودة بيننا، تخاطب وتحدث أصحاب العقول التي تؤمن وتفهم، فليست المعجزات الحسية التي أتى بها الرسل أقوى من معجزة هذه الشجرة الصماء التي تعيش بيننا ومعنا، رغم أنها لا تنطق ولا تمشي وليس لها قدرة تقارن بقدرات البشر، ولكنها تحمل رسالة للعقلاء مقرونة بمعجزات أعظم من معجزات الأنبياء التي انتهت في وقتها وأثرت تأثيرًا محدودًا، عدا معجزة القرآن الخالدة، فمعجزة الشجرة ليست معجزة معنوية، بل هي معجزة مادية حسية، فبرغم أنها

شجرة صماء لكنها تتحدى البشرية بمعجزاتها الخارقة، فبها جعل الله الحياة مستمرة على كوكب الأرض، ولولا هذه المعجزة لانعدمت الحياة، الشجرة هي مصنع التدوير الإلهي على أرضه، فتخرج من روث الحيوان والماء والتراب ما تستقيم به الحياة على كوكب الأرض، فثمارها وأزهارها وأوراقها وأغصانها وجذوعها معجزة متجددة تراها بعينك، وتلمسها بيدك، وتشمها بأنفك، وتذوقها بلسانك، وتأكلها بفمك لتستقر في معدتك، فتملأ بها بطنك، وهي تقول لك أنا معجزة الله أوجدني على أرضه فجعلني مأوًى وغذاءً ووسيلة عيش لسائر الكائنات والبهائم، وجعل قمة عطائي ونتاجي إليك أيها الإنسان، يغذيك ويدعوك للتأمل والتفكر فيمن أوجدني وأخرجني إليك من التراب كما خلق أباك من قبل لتؤمن به، فلقد أخرجني إليك نفعًا وتذكيرًا، قد جئتك برسالة جلها معجزات لو عقلتها، تدعوك لتسأل نفسك: من أرسلني؟ من سواني؟ من نشرني وأخرجني في كل بقعة من بقاع الأرض؟ إنها الشجرة، التي تحدث وتخاطب العقلاء بمختلف أجناسهم ولغاتهم، أُرسلت للفقراء والأغنياء والبسطاء، أُرسلت لتخرج في الحقول والدور والشوارع وفي كل بقعة على الأرض، تخاطب الراعي البسيط فتطعم مواشيه، وتدعوه ليلتفت إلى نفعها فلعله يقرأ رسالتها ويدرك المغزى، ترسم لوحات جمال على الأرض بألوان زهورها الفاتنة الجذابة ليلتفت إليها أصحاب الذوق الرفيع من الفنانين والرسامين علهم يهتدون لقراءة المغزى وهم يحاكون مناظرها الأخاذة بريشاتهم ولوحاتهم، حارت في جمال أصنافها وتشكيلها الكاميرات بعدساتها فنقلتها صورًا

للمشاهد تسبح بحمد ربها، عجبًا لصناع العطور كيف لا يقرأون رسالتها وهم يفتحون طرود الروائح الجذابة من عودها الفواح ووردها الفتان وياسمينها المنعش ونرجسها الأخاذ، ليسكبوه في قناني تغدق عليهم أموالًا في سوق العطارين يفوق بعض أصنافه قيمة الذهب!

يدعوك المولى لتأمل جمالها وطلعها وثمرها ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩).

تعرفت عليها النحلة فامتصت رحيق أزهارها لتخرجه من بطنها شهدًا عسلًا مصفى فيه شفاء للناس، تعرف عليها العصارون فأخرجوا منها الزيت ومن قصبها السكر، تعرف عليها النجارون فصنعوا منها الأثاث والهياكل العملاقة والسفن التي حملت البشرية قرونًا تمخر عباب البحر، تعرف عليها النساجون فأعطتهم ملابس القطن الفاخرة.

ألم يلتفت أولئك الذين حظوا بالنخلة في بلدانهم لتلك الشجرة ذات القوام الرشيق الأخاذ كعود الخيزران يتمايل جذعها إذا داعبته الرياح، ترقص بطولها وجمالها، تسرح بشعرها في الهواء في منظر يأخذ لب المتأمل، تلك النخلة التي احتضنت أممًا بحنانها، فمن جذوعها وسعفها وأليافها مساكنهم وبسطهم وحبالهم وأدوات عملهم وتخزينهم ومكانسهم،

تفيض عليهم بكرمها وجودها دبسًا ورطبًا جنيًّا وتمرًا كالجواهر قوتًا يدخرونه طول عامهم رمزًا لكرمهم وضيافتهم لا ينتن ولا يعفن، ﴿وَالنَّخلَ باسِقٰتٍ لَها طَلۡعٌ نَضيدٌ﴾(ق:١٠)، وقد شرفها القرآن لعلو قدرها بأن تكون ضمن أشجار الجنة.. ﴿فيهِما فٰكِهَةٌ وَنَخلٌ وَرُمّانٌ﴾(الرحمن:٦٨)، ألا يهتدي مهندسو البناء إلى تركيب قاعدتها من حيث تشابك عروقها القوية وطريقة تشبثها بالأرض كي تصبح مقاومة لقوة الرياح رغم طولها مع تركيب شعيرات جذعها المتراصة الطولية المرنة فتعطيها قدرة التماليل، وتحمل درجة من الانحناء رغم متانة وصلابة جذعها ليحمل مركز الرأس الثقيل في الأعلى مع خاصية الكرب الذي يغطي ذلك الجذع من أسفله لأعلاه كي يكون درجات سهلة للراكب؟.. ترى هل صممتها الصدفة أم خلقتها الطبيعة، أم أن وراء ذلك الإبداع والإعجاز خالقًا عظيمًا؟!!

الشجرة رسول من الله، تحمل رسالة إلى كل البشر في كل العصور حتى تقوم الساعة، إنها آية عظيمة ومعجزة متجددة، والذين يقرأون القرآن يدركون ذلك أكثر من غيرهم؛ إذ أكد لهم المولى بأنه هو زارعها لتخرج إليهم وليسوا هم الزارعون، فقال لهم متحديًا ﴿أَفَرَءَيتُم ما تَحرُثونَ﴾(الواقعة:٦٣) ﴿ءَأَنتُم تَزرَعونَهُ أَم نَحنُ الزّٰرِعونَ﴾(الواقعة:٦٤) هل لكم القدرة على إخراجه من النواة وهداية جذوره لامتصاص الماء والغذاء من التربة ثم نقله عبر الساق للفروع والأوراق والثمر؟... يا ترى لو تحطمت وتكسرت في مهدها، هل أنتم قادرون على إخراجها حية

﴿لَو نَشاءُ لَجَعَلنٰهُ حُطٰمًا فَظَلتُم تَفَكَّهُونَ﴾(الواقعة:٦٥) أي تتعجبون في مجالسكم من الجائحة التي أصابت زرعكم[1]

ألا تكفي هذه الشجرة بأن تكون رسولًا لمن يحمل عقلًا من بني البشر المتأملين؛ فتغرس الإيمان بالله في قلوبهم؟ ترى لو حاجك الله يوم القيامة وقال لك لقد أرسلت إليك شجرة معجزة رسولًا في بيتك أو في حقلك، لِمَ لمْ تلتفت إليها؟ لِمَ لمْ تقدر ما كانت تعطيك؟ لِمَ لمْ تثمن عطاياها؟ لِمَ لمْ تكلف خاطرك يومًا لتسأل نفسك كيف أتت ومن أنبتها وأخرجها؟

ألم تكن تدرك بأن حياتك كانت مرتبطة بوجودها فبدونها يهلك الحيوان الذي يغذيك ويعطيك لحمه ولبنه وجلده وصوفه ووبره، بدونها تُحرم الأثاث والخشب، بدونها تختنق فتموت إذ لا تمثيل ضوئيًّا وأكسجين، أليست هي منبع النار التي عاشت عليها أمم الأرض تصنع وتطهو وتتدفأ وتستنير بها معتمدة على الشجرة كوقود لها حتى الآونة الأخيرة من تاريخ الحياة بعد أن يسر الله اكتشاف الوقود البديل إذ أخرجه من باطن الأرض؟ أليست الشجرة رسولًا إليك في بيتك بمعجزاتها الخارقة؟ أليست الشجرة كريمة؟ هل تعلم أيها المؤمن الذي تقرأ القرآن، أن الله تعالى لم يذكر الإنسان بأنه كريم، بل أشار إلى شح نفسه وبخله وحرصه وحبه للمال والبغي والسيطرة، في حين أنه سبحانه وتعالى خص الشجرة وذكرها بالجود والكرم مخاطبا كل غافل عن كرمها بقوله -جل

1. أيسر التفاسير أبو بكر الجزائري.. سورة الواقعة

في علاه- ﴿أَوَلَم يَرَوا إِلَى الأَرضِ كَم أَنبَتنا فيها مِن كُلِّ زَوجٍ كَريمٍ﴾(الشعراء:٧) زوج كريم معطاء؟ فكل شجرة تعطي وأي عطاء! هذه تبسط الأرض بلون ورقها الأخضر، وتلك تطرزها بألوان زهورها، وتلك تعلف الحيوان، وتلك تعطي العطر، وتلك تملأ بطون البشر بما لذ وطاب من الفواكه والخضار والحبوب والمكسرات، وتلك تعطي الدواء والعلاج، وتلك تعطي رحيق العسل، وكلها تنقي الهواء وتعطي الأكسجين!

ختامًا.. أترك للقارئ الكريم حكم المقارنة، فأيهما أعلى كفاءة: مصانع الإنتاج المختلفة التي يقيمها البشر أم مصنع الشجرة؟ إذا علمنا أن مصانع البشر تغذى بمواد خام تناسب إنتاجها، فمصنع النسيج مواده القطن والخيوط، ومصنع الخبز مادته الدقيق، ومصنع الأثاث مادته الخشب، ومصنع العطور مادته الزهور والورود والمسك والعود، ومصنع العصائر مادته الفواكه، ومصانع الغذاء مادتها المواد الغذائية المختلفة، أما الشجرة فتأخذ مادة خام واحدة وهي الماء والسماد وتعطي مواد إنتاج مختلفة كالفواكه والخضار والحبوب والمكسرات والحمضيات والتمور والأخشاب والزهور والأدوية وغيرها، فأيهما أكثر كفاءةً في القدرة على الإنتاج وتحويل تراكيب المواد وخصائصها: المصنع المجهز الذي يستخرج من الزهور عطرًا، أم شجرة صغيرة تستخرج من الروث والمخلفات عطرًا فواحًا على لفائف مخملية الملمس فاتنة الشكل والجمال كالياسمين والنرجس والورد؟!

ألا يكفي أن تكون الشجرة وحدها رسولًا من الله إلى بني البشر، تحمل إليهم معجزات قد شاهدوها ولمسوها وشموها وأكلوها؟ ألا يمكن أن تكون الشجرة حجة لله بالغة يوم القيامة على كل بشر حتى ولو كان أعمى أو أصم أو أخرس؟ فقد بلغته رسالتها حين أطعمته وأظلته. أما يكفي الإنسان جهلًا وصدودًا وغفلة أن يتلذذ بطعم ثمارها وهو غافل عما تحمله من رسائل إيمان موجهة له تدخل في جوفه وهو -مع الأسف- كمحرك السيارة يستهلك وقودًا لا تعني له سوى الطاقة والاستهلاك!

الخلاصة: لقد أصبح جليًّا أن إيمان البشر غير مرتبط بقوة المعجزات التي تأتي بها الرسل، بل مرتبط بسلامة بصائرهم التي يرون بها تلك المعجزات، وحيث إن كل ما خلق الله وأوجد من عدم هو معجزة لكل ذي لب وعقل؛ فإن الحجة تقام يوم القيامة على العاقل السليم، ويعفى المعتوه والمجنون، فرسل الله في كل مكان، ولعل بشرًا واحدًا قد لاقته آلاف الأشجار في حياته فلم يدرك ولم يستوعب الرسالة!.. إنها رسالة الشجرة فافهموها واقرأوها فهي ضمن حجج الله عليكم يوم القيامة.

٤ - وحي الجمال

يقول تعالى: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحيًا أَو مِن وَراءِ حِجابٍ أَو يُرسِلَ رَسولًا فَيوحِيَ بِإِذنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكيمٌ﴾ (الشورى:٥١)

لا ينحصر معنى الوحي في صوت أو منادٍ تسمعه دون أن تراه، ولا برؤيا تراها، ولا بملك في صورة رجل يحدثك، إنما الوحي كذلك إلهام من الله، فمن ألقي في روعه شيء من أمر الله فهو بمثابة الوحي. حين تقع عيناك على جمال من خلق الله، سواء أكان على بشر أم حيوان أم شجر أم منظر أخاذ، وقد أحدث ذلك المشهد أو المنظر سرورًا وانشراحًا في صدرك، فاعلم أنها رسالة قد استلمها قلبك من الخالق قد وُجهت لك دون غيرك.. أنت الآن اطلعت على فحوى الرسالة وهي أن شيئًا جميلًا قد قرأته مشاعرك وأخبرتك به، ولكن هل قرأت الرسالة جيدًا؟ هل أدركت فحواها؟ أنت دون غيرك بمجرد شعورك بالجمال فإن الله يخاطب قلبك أنني أنا وحدي مبدع الجمال فالتفت إليَّ، أنا وحدي القادر على إدخال السرور إليك، أنا وحدي أجعل قلبك يفهم وينشرح، أنا وحدي عندي مقاييس الجمال التي يفهمها قلبك ويدركها دون سائر المخلوقات، فأنَّى وضعتها في شيء اكتسب صفة الجمال الذي تفهمه فصار جميلًا.. كل ما

يصنعه البشر من مفردات جمال أو يرسمونه إنما يستوحون ذلك من بعض ملامح الجمال التي بسطتها لهم ورسَّختها في عقولهم.. حين يشدك جمال وجه بشر، فإن رسالة المولى تقول لك بأن هذه نماذج لا تعدل شيئًا مع الجمال الأخاذ الذي يفتن العيون في الجنة، بل أنت نفسك ستحمل جمالًا في الجنة لا يضاهيه جمال بشر على الأرض، ستكون قمرًا من الأقمار﴿وما نحن بمسبوقين عَلىٰ أَن نُبَدِّلَ أَمثٰلَكُم وَنُنشِئَكُم فى ما لا تَعلَمونَ﴾(الواقعة:٦١) قال المفسرون: وننشئكم في أي صورة أردنا، فإن فتنتك زهرة أو وردة شممتها في دنياك، فما خيالك بورود الجنة وزهورها!.. رسائل الجمال هي ومضات تفتح الأذهان فتبهج النفس؛ عندها يتمتع النظر.. ترى ملامح وجه فتعلق الصورة في الذهن، تستدعي لدى المتأمل تساؤلات عدة: هل لصاحب الوجه دخل في اختيار هذه الصورة وتركيبها؟ هل يملك من أمره شيئًا؟ هل عنايته اليومية لها علاقة بهذا الجمال؟ هل البياض والسمار لون اختاره صاحبه؟ لو أتيحت الفرصة يومًا للبشر أن يغيروا من أشكالهم وألوانهم، هل سيبقى بشر منهم على شكله؟ فالأسمر يتمنى لو كان أبيض، والأبيض يطلب سمارًا تحت أشعة الشمس، ولعلك تجد في صالونات وعيادات التجميل إجابة على السؤال! الحقيقة أن صاحب الوجه الجميل لم يرَ جمال وجهه ولم يكتشفه إلا بالصدفة حين نظر في المرآة ولم يكن يدرك قيمة هذا الجمال حين كان طفلًا. فليس للإنسان خِيرة أو دخل في تحديد جنسه وملمحه. فالجمال رسالة لا يقرأها إلا ذوو

الإحساس من البشر، ليس شرطًا أن يكونوا مشايخ علم ودين، ولكنهم عباد قدروا الله حق قدره، من خلال الإعجاب والتقدير لعظيم إبداعه وخلقه؛ فارتفع مؤشر الإيمان بالخالق لديهم، لذا فإن التأمل والتفكر في كل جمال قد خلقه الله إنما هو من إجلال الله وتقديره وتعظيمه، بل هو انصياع واستجابة لدعوته لنا بالتفكر في عظيم خلقه وصنعه إذ التأمل عبادة تسمو بالروح والقلب، وتجعلك تحلق في ملكوت الله دون حدود؛ فيرتقي مقام المتأملين إلى مقام الموحى إليهم لأن عقولهم تقدر وتفهم وتقرأ آيات ربها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر:٧٥) أي الناظرين المعتبرين.[١]

١. ايسر التفاسير أبو بكر الجزائري.. سورة الحجر

٥- ماذا لو كنت مخلوقا آخر؟!

هل أدركت قيمتك ومكانتك بين مخلوقات الأرض؟ ماذا لو وجدت نفسك في هيئة مخلوق آخر من خلق الله غير هيئة البشر؟! ماذا لو كانت نفسك تسري في جسد بهيمة أو طائر أو حشرة؟! أليست هذه مخلوقات تحمل نفوسًا خلقها الله؟ ألست أنت أحد تلك المخلوقات؟ هل كنت تملك خيار جعل نفسك إنسانًا أو مخلوقًا آخر؟ أليست هذه كرامة عظمى من الله لنفسك حين جعلها نفس إنسان؟ ماذا لو وجدت نفسك مخلوقًا آخر وشعرت كما تشعر تلك الأنفس التي تحملها الأنعام التي تداريها وتطعمها وهي تنظر إليك نظرة المغلوب على أمره وهي تنتظر الساعة التي تجرها لتذبحها أو تبيعها إلى غيرك ليذبحها؟! أليست تلك البهائم نفوسًا أوجدها الله على أرضه في هيئات لمخلوقات مختلفة وجعلها أممًا لها قوانين ونظم ومبادئ تتزاوج وتبني وتتعاون؟! ﴿وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيهِ إِلّا أُمَمٌ أَمثالُكُم ما فَرَّطنا فِي الكِتابِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِم يُحشَرونَ﴾ (الأنعام:٣٨)

ألا تحمل تلك المخلوقات هموم الحياة فتسعى لتأمين مسكنها وتجتهد في تحصيل قوتها وتدافع عن صغارها؟ بل إن بعضها قد يحمل

همًّا لا تحمله نفوس بعض البشر، وهذا ما أدركه نبي الله سليمان -عليه السلام- حين فتح الله عليه فهم بعض لغات الطير والنمل، فتبين له ذلك الهم الدعوي الكبير الذي كانت تحمله نفس طائر قد أخذته الغيرة على دين الله، فراح يفتش في الأرض على بعد ألفي كيلو متر لينقل له خبر ملكة سبأ المعروف ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(النمل:٢٢)، كما أدرك شعور نفس تلك النملة التي صرخت تحذر بني أمتها من مقدم جيوشه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(النمل:١٨)، ومع كل هذا فهي نفوس تتعرض للإبادة والمكافحة والمطاردة والأذى في كل مكان على الأرض، ومع ذلك فنحن بني البشر لا نلتفت للنعمة العظمى التي حبانا الله حين جعل ذواتنا ذوات بشر وركبنا في صورة إنسان، ولم يجعلنا شيئًا آخر، أليس هذا تكريمًا وتشريفًا لكل نفس إنسان يسير على وجه الأرض؟.. أليست هذه كرامة ونعمة عظمى أن يجعل جنس البشر هو الجنس المفضل والمكرم على جنس كثير من المخلوقات؟ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(الإسراء:٧٠).

أعود بك للسؤال: تخيل نفسك لو كانت نفس جمل يُقهر بحمل الأثقال، أو حصانًا محجورًا في مربط، أو قطًّا أو فأرًا يبحث عن مأمن،

أو غزالًا يُطارد، أو فرخ طير في عش تلتهمه الأفاعي!.. كل هذه تداعيات شعور تعطيك قيمة تكريمك كإنسان.. ترى هل ستكون نهاية نفس البشر المكرمة نهاية أنفس المخلوقات الأخرى؟ أترانا نُترك هكذا عبثًا ويُفصل بيننا ويقضى كما يقضى بين نفوس سائر البهائم ثم نكون ترابًا مثلها؟ أم أن هذا التكريم والتشريف والحفظ والتميز له قيمة ندفعها؟ فلقد كُرمنا بما لم تُكرم به سائر الأقران من مخلوقات الدنيا، فقد أعطانا عقلًا ولسانًا ناطقًا ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد:٨-١٠)، وعلَّم أبانا حين خلقه وفهمه فهمًا ميزنا به حتى على الملائكة فقفز بمستوى حياتنا بين أقراننا من مخلوقات الأرض لدرجة أهلتنا للسيادة، فقد جعلنا نعمر الأرض وأقران الذات لا يعمرون، نصنع ونشيد وهم لا يصنعون ولا يشيدون، نصلح وهم لا يصلحون، نبطش ونفسد -مع الأسف- بهذا العقل وهم لا يفسدون ولا يصلحون، فإن أفسدوا أو بطشوا فبقدر ما يحفظ حياتهم من الهلاك، لدينا آمال كبار، فقد وُعدت نفوسنا بأن لها حياة خالدة في الجنة إن أحسنت عملها، فتدفعنا تلك الآمال للبذل والعطاء والقيم، وهم أمم قد لا يعيشون أملًا مثلنا.. فُضّلنا بالأمان من بطشهم، وهم قد فقدوه لضعفهم، نرى أفراد أمة البهائم تعيش بيننا، وربما تدرك بأننا في ساعة سنذبحها لنأكلها رغم عطفنا عليها، ولكننا لا نشعر بهذا الهاجس، فقد أُعطينا شعور المالك والسيد المتصرف.. ترى هل سنُترك هكذا نبغي ونقتل ونسرح ونمرح بهذا العقل الجبار دون أن يكون هناك مناط تكليف لهذا العقل وتكون لنا

ساعة محاسبة يُقتص من قوينا الذي امتلك السلطة والقوة والدعم على الأرض فعاث فيها فسادًا وحربًا وقتلًا وظلمًا لبني جنسه دون ند يقارعه أو شرطي يوقفه أو قضاء يضبطه؟!.. ﴿أَفَحَسِبتُم أَنَّما خَلَقنكُم عَبَثًا وَأَنَّكُم إِلَينا لا تُرجَعونَ﴾ (المؤمنون:١١٥) ألن نُسأل يومًا عن إمداد النعيم والفضل الذي لايضاهى ولا يقارن، إذ لا أمة من مخلوقات الأرض نراها بأعيننا قد نالت ما نلناه؟ ﴿ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعيمِ﴾ (التكاثر:٨).

يتفاخر بعضنا بملامح براقة كونه من العرق الفلاني ومن القبيلة الفلانية ومن الجنسية الفلانية، وقد نسينا الفخر الأعظم بأننا من عرق كريم ينتمي إلى البشر من بين مخلوقات الله، قد سُخرت لنا مخلوقات أخرى تخدمنا وأجلها ملائكة الرحمن تحفظنا وترعانا بأمر ربها ﴿وَإِنَّ عَلَيكُم لَحٰفِظينَ كِرامًا كٰتِبينَ﴾ (الانفطار:١١) فأي فخر وأي عزة وكرامة تضاهي هذا الانتساب والشرف العظيم!

الخلاصة: أقول لك يا صاحب النفس المكرمة: ألا يستحق هذا التكريم تأملًا وإدراكًا وفهمًا وحمدًا لله وشكرًا؟ ترى لو قضينا العمر ساجدين، هل سنوفي شكر هذه النعمة؟ أيسوغ لنفس بشرية بعد أن أدركت قيمتها ومكانتها بين أمم الأرض أيسوغ لها أن تعصي خالقها في أمر قد أمرها ونهي قد نهاها؟.

ختامًا: تذكر أن كل دابة وكل مخلوق من غير البشر إنما يحمل نفسًا، وله مشاعر خاصة، لا يعلمها إلا الله فقد تكون كمشاعرنا أو تختلف،

﴿وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيهِ إِلّا أُمَمٌ أَمثالُكُم ما فَرَّطنا فِي الكِتٰبِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِم يُحشَرونَ﴾(الأنعام:٣٨) فلا تحتقر كلبًا ولا تسئ إلى قطٍّ ولا تهن حمارًا، إنما هي نفوس قد خلقها الله كما خلقك ولم تكن مخيرة في اختيار أي بدن مخلوق ستعيش به على الأرض، كما لم تكن أنت مخيرًا بأن تكون إنسانًا. وقد ذُلل جلها من أجلك أيها الإنسان. ﴿أَوَلَم يَرَوا أَنّا خَلَقنا لَهُم مِمّا عَمِلَت أَيدينا أَنعٰمًا فَهُم لَها مٰلِكونَ ۝ وَذَلَّلنٰها لَهُم فَمِنها رَكوبُهُم وَمِنها يَأكُلونَ ۝ وَلَهُم فيها مَنٰفِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشكُرونَ﴾(يس:٧١-٧٣)، فتلك منن عظمى من الله على الانسان، فعاملها بما شرع الله، حتى تلك التي شرع ذبحها لمنفعة أو شرع قتلها لدفع ضرر فإن الإحسان في ذلك واجب على الإنسان ومشروع. يقول صلى الله عليه وسلم فيما روي عن شداد بن أوس: حَفِظتُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ اثنتَينِ: أنّه قال: إنّ اللهَ -جل وعلا- كتَبَ الإحسانَ على كلِّ شَيءٍ، فإذا قتَلْتُم فأَحسِنوا القِتْلةَ، وإذا ذبَحْتُم فأَحسِنوا الذَّبحَ، ولْيُحِدَّ أحَدُكم شَفْرتَه، ثمَّ لْيُرِحْ ذَبيحتَه..[1]

تلك قيم ربانية لا يفطن إليها سوى أصحاب العقول المتأملة.

١. شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ١٧١١٦ • إسناده صحيح على شرط مسلم • أخرجه مسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والترمذي (١٤٠٩)، وابن ماجه (٣١٧٠) باختلاف يسير، والنسائي (٤٤١٣)، وأحمد (١٧١١٦) واللفظ لهما •

٦ - قدر الله وحرية الانسان

كل ما في الكون خاضع لقدر الله وأمره وقضائه ﴿وَهُوَ القاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ وَهُوَ الحَكيمُ الخَبيرُ﴾(الأنعام:١٨)، وأن حرية البشر في ممارسة حياتهم وصلاحهم وفسادهم وطاعتهم وعصيانهم كائن بمحض إرادتهم واختيارهم، وذلك من أمره وقضائه. فلا يعقل أن يكتب المولى الشقاء على عبد قبل أن يولد ويجعل تصرفه موجهًا بقضائه كي يتحقق له الشقاء المكتوب فيدخله النارويعذبه. تنزه المولى عن هذا الفهم الذي لا يجب أن يكون لعاقل ﴿ما يَفعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُم إِن شَكَرتُم وَءامَنتُم وَكانَ اللَّهُ شاكِرًا عَليمًا﴾(النساء:١٤٧)، شخص قد كُتب عليه الشقاء فهو يعمل بما كُتب عليه فأين العدل في ذلك؟! فما أنزل الله الكتب وأرسل الرسل إلا من أجل هدايته وإنقاذه من النار. لَبْسٌ يدور في الأذهان ناتج عن قصور في فهم بعض الآيات التي تتحدث عن علم الله بما سيحدث مستقبلًا.. ولعل الآية الكريمة: ﴿ما أَصابَ مِن مُصيبَةٍ فِى الأَرضِ وَلا فى أَنفُسِكُم إِلّا فى كِتٰبٍ مِن قَبلِ أَن نَبرَأَها إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ﴾(الحديد:٢٢)، تسلط الضوء على هذا المعنى.

فالإجابة الشافية الوافية تكمن في تكملة الآية حين قال تعالى: ﴿إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ﴾(الحديد:٢٢) ومعنى ذلك أن افهموا أن رصد الأحداث قبل وقوعها أمر يسير بالنسبة لقدرة الله وعلمه. فكما ترون ما يحدث

أمام أعينكم حين حدوثه أيها البشر، فالله لديه مقدرة أعلى وأسمى من قدراتكم، فهو يعلم بحدوث الحدث قبل وقوعه وقد رصده في كتاب عنده. وقد أورد الحافظ ابن كثير في التفسير: (وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أَيْ: أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَكِتَابَتَهُ لَهَا طِبْقَ مَا يُوجَدُ فِي حِينِهَا سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كيف كان يكون)[١].... وكذلك بين في تفسيره لقول المولى -جل وعلا-: ﴿أَلَمْ تَعلَم أَنَّ اللَّهَ يَعلَمُ ما فِى السَّماءِ وَالأَرضِ إِنَّ ذٰلِكَ فى كِتٰبٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ﴾(الحج:٧) ما ذكره عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : "خَلَقَ اللَّه اللَّوْح الْمَحْفُوظ كَمَسِيرَةِ مِائَة عَام وَقَالَ لِلْقَلَمِ قَبْل أَنْ يَخْلُق الْخَلْق وَهُوَ عَلَى الْعَرْش - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - اُكْتُبْ فَقَالَ الْقَلَم وَمَا أَكْتُب قَالَ عِلْمِي فِي خَلْقِي إِلَى يَوْم السَّاعَة فَجَرَى الْقَلَم بِمَا هُوَ كَائِن فِي عِلْم اللَّه إِلَى يَوْم الْقِيَامَة "فَذَلِكَ قَوْله لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللَّه يَعْلَم مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْض" وَهَذَا مِنْ تَمَام عِلْمه تَعَالَى أَنَّهُ عَلِمَ الْأَشْيَاء قَبْل كَوْنهَا وَقَدَّرَهَا وَكَتَبَهَا أَيْضًا فَمَا الْعِبَاد عَامِلُونَ قَدْ عَلِمَهُ تَعَالَى قَبْل ذَلِكَ عَلَى الْوَجْه الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فَيَعْلَم قَبْل الْخَلْق أَنَّ هَذَا يُطِيع بِاخْتِيَارِهِ وَهَذَا يَعْصِي بِاخْتِيَارِهِ وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْده وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْمًا وَهُوَ سَهْل عَلَيْهِ يَسِير لَدَيْهِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ ذٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٢]... انتهى كلامه

١. تفسير القرآن العظيم ابن كثير سورة الحديد ٥٤٠

٢. تفسير القرآن العظيم ابن كثير سورة الحج ٣٤٠

لذلك علم الله أن فلانًا سيكون شقيًّا أو سعيدًا فكتب ذلك عليه، ولعل هذه الآية الكريمة تجلي هذا المعنى ﴿وَلَو عَلِمَ اللَّهُ فيهِم خَيرًا لَأَسمَعَهُم وَلَو أَسمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَهُم مُعرِضونَ﴾(الأنفال:٢٣)، وهذا ما يسمى بعلم الغيب الذي لا يملكه إلا الله وحده ﴿قُل لا يَعلَمُ مَن فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ الغَيبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشعُرونَ أَيّانَ يُبعَثونَ﴾(النمل:٦٥) ﴿عالِمُ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ الكَبيرُ المُتَعالِ﴾(الرعد:٩)، بل إن ما يؤكد علم الله بما سيحدثه البشر لو أعطوا فرصة العودة بعد هلاكهم يتضح في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَو تَرى إِذ وُقِفوا عَلَى النّارِ فَقالوا يا لَيتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكونَ مِنَ المُؤمِنينَ ۝ بَل بَدا لَهُم ما كانوا يُخفونَ مِن قَبلُ وَلَو رُدّوا لَعادوا لِما نُهوا عَنهُ وَإِنَّهُم لَكاذِبونَ﴾(الأنعام: ٢٧، ٢٨).

وما دامت لديه القدرة على ذلك؛ إذن فهو يعلم ما سيحدثه أي بشر منكم قبل أن يحدثه، ولن يموت ذلك الإنسان إلا بعد أن يستوفي جميع ما علمه الله عنه مسبقًا وكتبه، فعلم الله محكم دقيق، حاشاه عن الخطأ والغفلة والنسيان، وكما قيل بأننا نعيش في ماضي الله، فحتى نفختا الصور اللتان هما مستقبل مجهول لم يحدث بالنسبة لنا، ذكرهما المولى بصيغة الماضي حين قال، ﴿وَنُفِخَ فِي الصّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّماواتِ وَمَن فِي الأَرضِ إِلّا مَن شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخرى فَإِذا هُم قِيامٌ يَنظُرونَ﴾(الزمر:٦٨)، وهذا من أمر قدرته وإحاطته علمًا بكل شيء -جل في علاه- ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيءٍ عِلمًا﴾(الأعراف:٨٩)، ولا غرابة إذا علمنا أن الزمن يُعرف بماضيه وحاضره

ومستقبله لمن يعيش فيه، أما المولى -جل في علاه- فهو موجد الزمن بما فيه ولا يمكن لمخلوق أن يحيط بشيء من علم الخالق، ولا حتى تصور قدرته إلا بما شاء به الخالق نفسه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾(البقرة:٢٥٥). فالزمن وما يحتويه، بماضيه وحاضره ومستقبله، معلوم عند خالقه وموجده، وقد حجب ذلك عمن سواه، ثم أمر الملائكة برصد سلوك البشر المخيرين في تصرفاتهم الأحرار في إرادتهم من أجل عرض ذلك عند حسابهم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(الزخرف:٨٠). فإذًا تلك التصرفات والسلوكات تكون مطابقة حرفيًّا لما علمه مسبقًا عنهم، فلا يمكن أن تظلمهم الملائكة بخطأ في الرصد والتسجيل، وهي تدرك بأن أصل تلك الأعمال مسجل ومرصود مسبقًا عند الله، لا بد لرصد الملائكة أن يكون مطابقًا لما علمه الله مسبقًا من أقوالهم وأفعالهم وأسرارهم ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الجاثية:٢٩). فالله يعلم علمًا مسبقًا كل حدث في السماوات والأرض، متى وكيف وأين سيحدث، وهو شاهد حاضر معنا في كل لحظة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الحديد:٤)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ

إِلّا هُوَ مَعَهُم أَينَ ما كانوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِما عَمِلوا يَومَ القِيٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾(المجادلة:٧) كل هذه الآيات تؤكد إحاطة علم الله بكل شيء في هذا الكون، وقد افتتح الآية الأخيرة بلفت النظر لعلمه، وختمها كذلك مؤكدًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾(المجادلة:٧)... إذن فالمقصود هنا الدراية والمعرفة بالشيء وليس التدخل في تصرفه، ومع ذلك الملائكة تسجل وتكتب لإقامة الحجج عليهم ﴿أَم يَحسَبونَ أَنّا لا نَسمَعُ سِرَّهُم وَنَجوىٰهُم بَلىٰ وَرُسُلُنا لَدَيهِم يَكتُبونَ﴾(الزخرف:٨٠) هو سبحانه لديه العلم والمعرفة مسبقًا بأعمالنا ونحن أحرار في أفعالنا وتصرفاتنا، والله سبحانه وتعالى يربط مشيئتنا بمشيئته في تنفيذ الأفعال ليمكننا بقدرته على ذلك، فلا يمنعنا من فعل أي شيء أردنا فعله ولو كان خطأً ثم يحاسبنا عليه ﴿وَما تَشاءونَ إِلّا أَن يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ العٰلَمينَ﴾(التكوير:٢٩) وقد ضمن لنا حرية التصرف بقوله -جل في علاه- ﴿قُل كُلٌّ يَعمَلُ عَلىٰ شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُم أَعلَمُ بِمَن هُوَ أَهدىٰ سَبيلًا﴾(الإسراء:٨٤). ولعل الله -جل في علاه- مد عباده بمعارف تمكنهم من توقع بعض ما سيحدث من ظواهر غيبية، فتأتي تلك الظواهر مطابقة في كثير من الأحيان لتوقعاتهم بناء على دقة المعطيات العلمية المتوفرة لديهم، فكلما زادت دقة المعلومات زادت دقة التوقعات، فالمعلومات الدقيقة هي مفاتح للكشف عن نتائج صحيحة، ولعل النشرات الجوية هي أقرب استدلال على هذا الطرح، فتجد خبراء الأرصاد يبنون توقعات الطقس بناء على معطيات ومعلومات مرصودة، فيتوقعون متى وأين سينزل المطر، وكثيرًا ما تُصِب توقعاتهم بناء على دقة المعلومات

المناخية المتاحة... وإذا علمنا أن الله قد أحاط بكل شيء دراية وعلمًا وبكل دقة، وأنه يملك جميع المعلومات اللازمة للكشف عن أي نتيجه وتسمى (مفاتح الغيب) ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ (الأنعام:٥٩)، علمنا أن كل ما يحدث في الكون لا بد أن يتوافق مع علم الله، فهو مقدره؛ لذا فإنه من اليسير على الله أن يعلم متى ستسقط أي ورقة من أي شجرة وفي أي زمن لأن لديه علمًا مسبقًا بقوتها، وحالة الفرع الذي يحملها، ودرجة تماسك قاعدتها ونسبة جفافها، كما لديه علم مسبق بقوة نسمة الهواء التي ستكون كافية لإسقاطها وفي أي لحظة ستلامسها، بناء على تلك المعلومات الدقية فإن تقدير الله يحدث كما قدره؛ نتيجة إحاطته علمًا بكل شيء، فقدر الله لا يخطئ أبدًا، هذا بالإضافة إلى علمه السابق بحدوث الحدث قبل وقوعه كما تقدم بصفته عالم الغيب والشهادة؛ لذا فقد أصبح مسلمًا لدى العاقل أن يؤمن أن علم الله لا يغير من حرية وقوع الحوادث والتصرفات بناء على المسلمات والسنن الكونية، فالنار تحرق والماء يغرق والأرض تجذب، فخصائص الأشياء قوانين قد كتبها الله لا تتغير، فهي تعمل وتؤثر في الحياة كيفما تم استخدامها والتعامل معها، وللإنسان حرية التصرف بها، فتعمل كيفما أرادها مطيعة أمر من سخرها، فقد يستخدم الإنسان النار في الخير كالتصنيع والطهي والدفء، وقد يستخدمها في الشر كإضرام الحرائق والتعذيب والتدمير، فكل شيء يعمل ويؤثر بقدرة الله وتمكينه،

قد سخره ليكون قوامًا للحياة، وقد مكن الإنسان بالمعرفة ليستخدم تلك المعطيات، ولديه سبحانه علم إحاطة بما سيحدثه أي مخلوق، وبيده أن يبدل ويغير ويمنع لو أراد ما يشاء متى شاء كيف شاء.. والغريب في الأمر أن بعض الناس يؤمن بقدرة الساحر على علم ما سيحدث مستقبلًا، فلو أخبر أحدهم أن ذاك الطائر سيقع على الأرض بعد ثوانٍ وفعلًا يحدث ويقع الطائر، فأول ما يظن في القائل أنه ساحر؛ حيث قد ارتبط في الذهن أنه لا يقدر على معرفة ذلك إلا إذا كان لديه سحر، فإذا كان الساحر المخلوق الضعيف قد أوعز إليه إمكانية معرفة الغيب، فكيف بخالق الساحر وخالق الكون لا يعلم ما سيحدث مستقبلًا!

وعودة إلى ما اختص الله -جل وعلا- نفسه بعلم الغيب، فإن كل ما في المستقبل يندرج تحت هذا العلم الذي كشف لنا عن بعض مضامينه في القرآن الكريم من أخبار المستقبل، وما يتعلق من مشاهد يوم القيام، ويوردها -جل وعلا- في صيغة الماضي، كحديث من رأى وشاهد وليس كحديث من قضى وقدر وأمر بالتنفيذ، فلم يستخدم (سَ أو سوف) التي تفيد المستقبل في الحوارات أو الأحداث التي ستقع، فمثلًا حين ذكر حديث الاختصام بين القرناء قال -جل في علاه: ﴿قالَ قَرينُهُ رَبَّنا ما أَطغَيتُهُ وَلٰكِن كانَ في ضَلٰلٍ بَعيدٍ ۝ قالَ لا تَختَصِموا لَدَيَّ وَقَد قَدَّمتُ إِلَيكُم بِالوَعيدِ﴾(ق:٢٧، ٢٨)، فلم يذكرها لنا بصيغة المستقبل المقدر مثلًا (وسيقول قرينه)، بل قال جل في علاه: ﴿قالَ قَرينُهُ﴾(ق:٢٧)، وهذه رواية من سمع وشاهد بعلمه وقدرته

سبحانه وتعالى، وكذلك قوله تعالى: ﴿قالَ الَّذينَ حَقَّ عَلَيهِمُ القَولُ رَبَّنا هٰؤُلاءِ الَّذينَ أَغوَينا أَغوَيناهُم كَما غَوَينا تَبَرَّأنا إِلَيكَ ما كانوا إِيّانا يَعبُدونَ﴾(القصص:٦٣)، وكذلك سائر الأحداث التي هي مستقبل بالنسبة لنا يرويها المولى – جلت قدرته- رواية المطلع المشاهد السامع.

﴿وَنادىٰ أَصحٰبُ الجَنَّةِ أَصحٰبَ النّارِ أَن قَد وَجَدنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَل وَجَدتُم ما وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا قالوا نَعَم فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَينَهُم أَن لَعنَةُ اللَّهِ عَلَى الظّٰلِمينَ﴾(الأعراف:٤٤) إلى غير ذلك من مشاهد مصورة لم تحدث ويعرضها المولى -القدير العليم- بصيغة الماضى وكأنها حدثت، فكأن الله قد رأى المشاهد قبل حدوثها فيرويها لنا بصيغة الماضي، وهذا من عظيم قدرة الله التي لا يمكن لعقل البشر أن يتصورها. ولو تأملت أي كتاب على وجه الأرض لن تجده يتكلم عن المستقبل بصيغة الماضي لأن الكاتب ليس لديه علم أو اطلاع أو يقين بما سيحدث مستقبلًا، خلا كتاب الله، فإنه حين يتناول الجانب القصصي تجد فيه عجبًا فهو يتحدث عن المستقبل بصيغة ماضٍ قد وقع كما ورد في الآيات السابقة، وأحيانًا يستخدم ما يسمى بأسلوب الحكيم وهو عدم ذكر المتحدث أو القائل بل الإشارة إليه، كقوله تعالى: ﴿وَقيلَ ادعوا شُرَكاءَكُم فَدَعَوهُم فَلَم يَستَجيبوا لَهُم وَرَأَوُا العَذابَ لَو أَنَّهُم كانوا يَهتَدونَ﴾(القصص:٦٤) كلها صيغ ماضٍ تروي وقائع مشاهدة واقعة في علم الله وهي لم تقع بعد بالنسبة لنا، حتى أفرادها المذكورون فيها ربما لم يولدوا بعد في الدنيا، ولكنهم

سيولدون وسيعيشون دورة الحياة بحرية كاملة في التصرف والسلوك والاعتقاد، وسيكون ذلك موافقًا لما سبق في علم الله عنهم، لن يزيد ولن ينقص، وسيموتون ثم يحشرون يوم القيامة وسيدور بينهم الحديث الذي رواه المولى -جل وعلا- بكل دقة وتفصيل.

الخلاصة: أن الله سبحانه قد أحاط بكل شيء علمًا وقد رصده في كتاب عنده وأن ذلك أمر يسير عليه ﴿أَلَم تَعلَم أَنَّ اللَّهَ يَعلَمُ ما فِى السَّماءِ وَالأَرضِ إِنَّ ذٰلِكَ فى كِتٰبٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ﴾(الحج:٧٠)، ويؤكد سبحانه أنه لم ولن يخفى عن علمه شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الله لَا يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾(آل عمران: ٥)، فقد أحاط علمه -سبحانه- بجميع الأزمان الحاضرة، والماضية، والمستقبلة، وأنه -سبحانه وَتَعَالَى- قد كتب ذلك كله وقدره وهو عليم به سبحانه ﴿وَإِنّا لَنَحنُ نُحيۦ وَنُميتُ وَنَحنُ الوٰرِثونَ ۝ وَلَقَد عَلِمنَا المُستَقدِمينَ مِنكُم وَلَقَد عَلِمنَا المُستَـٔخِرينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحشُرُهُم إِنَّهُ حَكيمٌ عَليمٌ﴾(الحجر:٢٣)، وأن كل شيء يقع وفق ما علمه فقضاه وقدره، وأن الله -جل في علاه- لا يزيد علمًا بالشيء، فإنه يعلمه عَلَى صفته التي سيكون عليها قبل أن يكون، فالله -عز وجل- علم ما كان وما هو كائن وما سيكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون، فهذه مراتب علم الله.

٧ - هل أنت قاعد أم مجاهد في سبيل الله؟

يقول تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى الْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(النساء: ٩٥، ٩٦).

قبل الحديث في مغزى الآية الكريمة، وجب بيان الفرق بين الجهاد والقتال، فالجهاد يشمل كل بذل في سبيل الله والقتال جزء منه، والآية الكريمة هنا لا تتحدث عن القتال وحده ولم تشر إليه، بل تتحدث عن الجهاد الشامل في سبيل الله بمعناه الخاص والعام، أما الخاص: فهو كل بذل في نصرة الدين وإقامة أوامر الله في خلقه وتحقيق عبوديتهم لله، والقتال جزء منه، أما الجهاد بمعناه العام الشامل: فهو كل سعي في طاعة الله وابتغاء رضوانه في دين أو دنيا عبادة أو معاملة، علمًا أو عملًا، كسبًا أو صدقة، فليس القاعد والمجاهد هو جندي المعركة وحده، بل إن قاعدة الجهاد ببذل النفس والمال في سبيل الله عريضة، فمنها نصرة الحق، ومنها الدعوة إلى الله، ومنها البذل والعطاء وإسعاد الآخرين وفي ذلك مراتب ودرجات، فمن أعطى صدقة لمحتاج ليس كمن وفر له فرصة عمل في شركته أو مصنعه، ومن هنا يتضح أن صاحب المال الذي لا يجاهد

ويسعى لتنميته يعتبر قاعدًا إن كان قادرًا على ذلك؛ حيث إن تنمية أمواله تنبني عليها مصالح العباد، فلا يتحقق ذلك بقعوده؛ فلا ينتفع منه عامل ولا موظف، ولا تزيد فيه نسبة زكاة المستحقين، وصاحب العلم الذي لا ينفع به الآخرين يعتبر قاعدًا، وصاحب الجاه الذي لا يستغل وجاهته في تذليل الصعاب ومساندة المحتاجين إليه يعتبر قاعدًا، فكل تكاسل يؤدي إلى تراجع في مصالح العباد يعتبر قعودًا للقادر عليه... فحتى العبادة التي تتحقق بها مصلحة النفس فيها قعود وجهاد، فهذا مجاهد بأدائها على أكمل وجه، وذاك قاعد مقصر في حقها يتخلق الأعذار، فمجاهدٌ من حرص على أداء الصلاة في جماعة، وقاعد من تخلف عنها لأتفه الأسباب، قاعد إذا نام عن قيام الليل وهو قادر عليه ومن هو مثله قائم، قاعد من قصَّر في الدعاء وغيره مجاهد يتضرع، قاعد من قصَّر في ذكر الله ولديه فراغات لا يقضيها في تدبر وتفكر مفيد.

الخلاصة... إن الجهاد بمعناه العام هو بذل النفس في تحقيق المزيد من النماء والنفع والصلاح للنفس والآخرين، والقعود هو التقصير عن كل سعي مشروع مقدور عليه تتحقق فيه مصلحة الفرد والمجتمع، فهنيئًا لكل مجاهد قد اغبرت قدماه ساعيًا باذلًا متطوعًا لخدمة مجتمعه... قَال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ما اغْبَرَّتْ قدَما عَبْدٍ في سبيلِ اللَّه فتَمسَّه النَّارُ"[1]..

فأين تجد نفسك الآن؟ هل أنت قاعد أم مجاهد؟

---

١. *البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٨١١ • [صحيح]

٨ - علم الكتاب وأسرار الكون

ما يزال العلم في بداياته رغم التقدم التكنولوجي وتطور كثير من العلوم، إلا أن الإنسان يكتشف جهلًا كان يغشاه كلما انفتح له باب علم ومعرفة، فما زالت البشرية غير قادرة على اختراق كثير من حواجز المعرفة رغم تقدمها المذهل، فلم تتوصل بعد إلى اكتشاف ما يحرر الأشياء من جاذبية الأرض إلا باستخدام المحركات والطاقة النفاثة التي تخرجها من هذا المجال، وما زالت البشرية غير قادرة على نقل أعيان الأشياء إلا عن طريق تحميلها بوسائل نقل كالحيوان أو العربة أو السيارة أو السفينة وأسرعها الطائرة والصاروخ، أو قذفها بقوة الانفجار، لم تمتلك بعد معرفة تحريك الأشياء دون هذه الوسائل، ولعل القارئ يستغرب من هذا الطرح، فهل هناك وسائل أخرى لتحريك أعيان الأشياء؟! والجواب في منتهى البساطة نعم، فقد استُخدمت مؤخرًا قوة الطرد المغناطيسي في تحريك القطارات السريعة جدًّا، ولكن ما تزال هناك سنن كونية وأسرار علمية لم يكتشفها البشر ﴿وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمرِ رَبِّي وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قَليلًا﴾(الإسراء:٨٥) فكل ما وصل إليه الإنسان من التطور التقني والتكنولوجي والطبي، والتفنُّن في الصناعات، وركوب البرّ والبحر، وغيره من العلوم، ما هو إلا قدرٌ ضئيلٌ من العلم قد فتح الله به

على عباده، وقد ذكر المولى – جل في علاه – أن تحصيل العلم لا يتأتي إلا بأسباب قد جعلها الله، وذلك يفهم مما ذكره –سبحانه وتعالى - في آية الكرسي ﴿يَعلَمُ ما بَينَ أَيديهِم وَما خَلفَهُم وَلا يُحيطونَ بِشَيءٍ مِن عِلمِهِ إِلّا بِما شاءَ﴾(البقرة: ٢٥٥)

﴿إِلّا بِما شاءَ﴾(البقرة:٢٥٥) من وسائل المعرفة ومنها البحث العلمي والاجتهاد، لذا على البشرية أن تجدَّ في البحث لتكتشف نظريات أخرى وسننًا أخرى في نواميس الكون، نشاهدها بأعيننا ولكن لا نملك تفسيرًا لقواعد عملها، وقد أشار المولى لنا في القرآن الكريم إلى علم الكتاب الذي مكن صاحبه من نقل عين الأشياء بسرعة مذهلة، قد نعدها معجزة لأن سرها ما زال مجهولًا بالنسبة لنا، فقد استخدمه ذلك العالِمُ بهِ في تحدي سرعة الجن والتي نعدها خارقة، لكنه تجاوز كل تقنياتهم ووسائلهم، فاستغرق ربما أجزاءً من الألف من الوقت الذي احتاجوا إليه لنقل العرش، فأحضره من اليمن إلى القدس بأسرع من رمشة عين ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(النمل:٣٨-٤٠) علمنا الحالي تمكن من نقل إشارات كهرومغناطيسية بهذه السرعة ولكنه لم يفلح في نقل عين الأشياء بالسرعة المشار إليها، علينا أن نبحث ونبحث

عن علم الكتاب الذي أشار إليه المولى -جل وعلا- في الآية السابقة، فهل هو علم بشري أم هو علم الاستعانة بالله ليحدث به كرامة أو ما نعده معجزة تكون خرقًا لنواميس الكون التي اعتدناها، بل لربما التي غابت عنا؟ علينا أن نبحث كذلك في ظواهر علمية تلامس حياتنا لكشف أسرارها وسبر أغوارها، فمن ذلك على سبيل المثال: العين وقوة تأثيرها على الأشياء إذ تخرج منها طاقة مؤثرة هي أقرب لطاقة الصعق الإشعاعي أو الكهرومغناطيسي! فما زالت البشرية حائرة بين مصدق ومكذب لروايات أثر العين وما تفعله من خوارق؛ إذ تهوي بالطير المحلق، وتحرق وتسقط الشجرة القائمة، وتسقط العذق المثمر! وقد عشت بنفسي تجربةً رأيتها بعيني وسمعتها بأُذني حين دخل معجب إلى بستاننا الصغير في بداية سبعينات القرن الماضي وأنا مع والدي قبيل المغرب إذ كان البستان يغص بأشجار الموز المثمرة، فقال كلمته متعجبًا باللهجة الدارجة (والله يستوي عندكم الموز) ثم خرج وقد خرجنا بعده وحين عودتي في الصباح الباكر إلى البستان أدهشتني أشجار الموز التي تحولت إلى مجسمات متفحمة وكأن حريقًا شب في البستان! لم يحرق إلا أشجار الموز فقط ولم يمس أي ورقة من شجرة أخرى، والغريب أن شجر الموز بجذعه وورقه وثمره قد تحول فحمًا أسود يتكسر! وبعد تلك الحادثة مرت سنون ووالدي يحاول إنبات شجرة موز بالمكان فلم ينجح، فيما تنبت سائر الأشجار!! هذا مثال على قدرة تأثير العين أو إيحاء لا تعرف البشرية تفسيره أو طريقة عمله، والحسد بالعين حقيقة ملموسة لا

ينكره أحد، وهو ظاهرة موجودة من قديم الزمان، وإن عجز بعض الناس عن تفسيره تفسيرًا علميًّا، فقد أثبتته السنَّةُ فيما رواه عبدالله بن عباس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنَّه قال: "الْعَيْنُ حَقٌّ، ولو كانَ شيءٌ سابَقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُمْ فاغْسِلُوا".[1]

وقد ثبت في القرآن والسنة أن للعين الحاسدة أثرًا في إلحاق الضرر بالمحسود بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون﴾(القلم:٥١)، وقد اتخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- لها إجراءً وقائيًّا وإجراءً علاجيًّا، فقد ورد عن عبيد بن رفاعةالرزقي [عن أسماء بنت عميس:] قالتْ أسماءُ: يا رسولَ اللهِ، إنّ بَني جَعفَرٍ تُصيبُهمُ العَيْنُ، أفأَستَرْقي لهم؟ قالَ: نَعمْ، فلَو كانَ شيءٌ سابَقَ القَدَرَ، لسبَقَتْهُ العَينُ..[2]

ما هذا الأثر الذي تحدثه العين أو يحدثه الحسد؟!!

يتضح مما سبق أن تأثير العين ليس تأثيرًا نفسيًّا على أدمغة البشر أو وسوسة شيطان، بل تأثير طاقة تصيب عين الأشياء؛ فتلك أوراق خضراء قد سرى فيها تأثير العين فتحولت إلى فحم أسود دون إضرام نار!!.. يا له من مجال خصب للبحث والدراسة والتجارب! على أقل تقدير إجراء

١. الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٤١٤٧ • صحيح • أخرجه مسلم (٢١٨٨)

٢. شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢٧٤٧٠ • حسن • أخرجه الترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجه (٣٥١٠)، وأحمد (٢٧٤٧٠)

فحوصات مخبرية دقيقة على أولئك المؤثرين بأعينهم، فلرب خيط أوصل لاكتشاف أو فتح علمًا عظيمًا! وقد لا يشعر الحاسد أحيانًا أن لديه قوة مؤثرة.

الخلاصة: لقد حبانا الله عقلًا أودع فيه إمكانات هائلة مكنت بني جنسنا من تحقيق طفرة أوصلت البشرية إلى ما تعيشه اليوم من تقدم وتطور في الصناعة والتقنية، وذات العقل لديه قدرات كامنة ستكشف لنا بعد زمن يسير أن حواسيب اليوم كانت بدائية متخلفة، فكلما اجتهد الإنسان في تفجير طاقات عقله بالبحث والتأمل يسر له الله ذلك؛ فارتقى وتقدم وتوصل إلى حقائق لم يكن يعرفها من قبل.. إنها خفايا علم وأسرار معرفة، فما زالت البشرية بحاجة إلى مزيد من ألوان العلم والبحث والكشف عن كثير من الظواهر والأسرار المحيرة، فليس للعلم والمعرفة حدود ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥).

٩ - لم لا تُنفذ عدالة السماء في الأرض؟!

كثيرًا ما تنكسر الخواطر تعاطفًا مع موقف حصل لإنسان أو حيوان على وجه الأرض، وكثيرًا ما نرى من ظلم البشر وشراسة الحيوان، فكلٌّ يفترس بني جلدته بطريقته، فتجد الحروب الطاحنة التي تدور بين البشر على مر التاريخ، وتجد افتراس الحيوان لجنسه أو غير جنسه من المخلوقات؛ فيسيطر نظام الغاب وتسيطر الأنانية على جُلِّ مخلوقات الأرض، يتنافسون في السيطرة والتملك والغلبة، فهي بحق مسرح للحرية الجائرة أكثر من كونها مسرحًا للنظام والعدالة، ناهيك عما ينتاب سكانها من كوارث بيئية متمثلة في الزلازل والصواعق والأعاصير والحرائق والأوبئة والأمراض التي تقضي على مخلوقاتها بما فيها الأشجار والدواب والإنسان والحيوان... فربما يقول البعض: لماذا لا يتدخل المولى -جل في علاه- لإنقاذ الأبرياء المضطهدين والمعذبين ومن يُذبحون من النساء والأطفال والرجال ظلمًا وقهرًا وجورًا؟! بل قد يكون سبب تعرضهم لذلك التنكيل والاضطهاد والتعذيب أنهم يعبدونه ويؤمنون به هو وحده -جل في علاه- دون غيره، فالقضية قضيته سبحانه وتعالى، ولكنه لا يتدخل على الفور لينصر عباده رغم قدرته، فكم تعرض المؤمنون بالله لألوان التعذيب والتطهير العرقي والحرق والذبح والإبادة، كما حصل في الأندلس، وكما

يحصل للروهينجا في ميانماروالليجور في الصين وكذلك الهند وغيرها! والأغرب من ذلك أن الله -جل في علاه- يكشف لنا عن مشهد مروع يذكره لنا في سورة البروج يروي لنا قصة أصحاب الأخدود المعبرة عن الطغيان والاضطهاد ويكشف لنا عن بشاعة مناظر التعذيب والقسوة التي تعرض لها المؤمنون آنذاك بسبب الإيمان به، ويؤكد لنا حضوره وشهادته على ذلك ﴿النَّارِ ذاتِ الوَقودِ ۝ إذ هُم عَلَيها قُعودٌ ۝ وَهُم عَلىٰ ما يَفعَلونَ بِالمُؤمِنينَ شُهودٌ ۝ وَما نَقَموا مِنهُم إِلّا أَن يُؤمِنوا بِاللَّهِ العَزيزِ الحَميدِ ۝ الَّذى لَهُ مُلكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ وَاللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ﴾ (البروج: ٥-٩). ولكنه سبحانه وتعالى لم يذكر لنا أنه تدخل لإنقاذهم رغم قدرته المطلقة على تعطيل نواميس الكون، وهذا ما فعله من أجل عبد من عباده، إذ عطل خاصية النار ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩) في حين أنه جل في علاه تركها تحرق من آمن به من أصحاب الأخدود، فما هو السر وراء ذلك؟ ألا يسبب ذلك نكسة وتراجعًا في اعتناق دين الإسلام؟!...

لذلك تثار عواطف البشر متسائلة: أين عدالة السماء من السيطرة على مجريات أحداث الأرض، فيُمنع فيها الظلم وتُمنع على ظهرها الجريمة؟! فتساور النفوسَ خواطرُ الكفر والإلحاد بأن ليس هناك مسيطر على مجريات الأحداث في الأرض... ولكن قد تبدو عوارض الأحداث غير كافية لفهم ما يجري ويحدث؛ فحين يقوم المزارع بتقليم الشجر من أجل استعادة قوته، يبدو للناظر أنه يقوم بتحطيمه وتخريبه، ولعل اطلاع

البشر على الجزء الأول فقط من مسلسل الأحداث شكل لديهم انطباعًا خاطئًا بسبب عدم استيعابهم للفكرة فأصدروا أحكامًا خاطئة. لقد غاب عن فكر البشر الغاية أو المهمة التي خلقوا من أجلها على وجه الأرض، وأن العدالة والاستقرار والتوازن الفطري الذي ينشدونه موجود، ولكن مجريات الحدث لم تكتمل بعد، وكان لا بد من فهم حياة الأرض قبل إصدار أي أحكام على جهل... فحين لا يطلعون على الدليل المرفق أو المرشد لحياة كوكب الأرض أو لا يؤمنون بما بين وأوضح فيه من تفاصيل المشهد، فإن الحيرة تأخذهم والتخبط يصرعهم؛ فلا يدركون أبسط مبادئ حياة الأرض ولا يدركون النواميس التي ركبت عليها، ولا يدركون الهدف والغاية التي جعلت نواميس هذه الحياة تكون بتلك الطريقة التي لا تفهمها عقولهم، ولو كلفوا أنفسهم الاطلاع على كتاب الله لفهموا وأدركوا غاية وجودهم هنا، فحين أنزل الله أبويهم من الجنة إلى الأرض لم ينزلهما للرفاهية والنعيم والاستقرار الدائم، بل أنزل معهم عدوًّا ينغص عيشهم وعيش ذريتهم ويغويهم فيها كما فعل بأبويهم في الجنة، وقد بين لهم ذلك وحذرهم أيضًا ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(الأعراف:٢٧) ثم أكد هذا المعنى فقال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾(البلد:٤)، ثم بين لهم ملمح البلاء ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(البقرة:١٥٥).

ثم عرض لهم حقيقة حياة الأرض ﴿اعلَموا أَنَّمَا الحَيوٰةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَينَكُم وَتَكاثُرٌ فِي الأَموٰلِ وَالأَولٰدِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرىٰهُ مُصفَرًّا ثُمَّ يَكونُ حُطٰمًا وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضوٰنٌ وَمَا الحَيوٰةُ الدُّنيا إِلّا مَتٰعُ الغُرورِ﴾(الحديد:٢٠) ثم بين لهم ملمح الفتنة والزينة ﴿إِنَّما أَموٰلُكُم وَأَولٰدُكُم فِتنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجرٌ عَظيمٌ﴾(التغابن:١٥)، ثم حذرهم وأمرهم بالصفح عنهم ﴿يٰأَيُّهَا الَّذينَ ءامَنوا إِنَّ مِن أَزوٰجِكُم وَأَولٰدِكُم عَدُوًّا لَكُم فَاحذَروهُم وَإِن تَعفوا وَتَصفَحوا وَتَغفِروا فَإِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَحيمٌ﴾(التغابن:١٤).

ثم أكد لهم الموت والعودة ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ وَنَبلوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً وَإِلَينا تُرجَعونَ﴾(الأنبياء:٣٥). كتاب الله نور يشرح كل تفاصيل الحياة ويكشف عن أحداثها التي تبين مراد الله من الحياة الدنيا، إذ جعلها مسرح اختبار وابتلاء، وطريقًا للوصول إلى الحياة الفاضلة التي ينشدها كل بشر ويتمناها وهي حياة الجنة، فما وُضعت كل تلك التحديات في الأرض إلا ليجتازها كل من يستحق العيش هناك، فلا تقبل الجنة إلا مطهرًا، فيصفي أصحاب النفوس الشريرة، ويؤدب العاصي، ويقتص من المجرم في يوم الحساب، فمنهم من يقضي فترة التهذيب والتأديب في النار حتى يدخل الجنة، يدخلها بمواصفات سكان المدينة الفاضلة، ومنهم قد ضبط نفسه والتزم في حياة الأرض فلم يرتكب سوى النزر اليسير من المعاصي، فلربما عُجلت له عقوبة في الأرض فلقي ربه نظيفًا فدخل الجنة

دون حاجة إلى حساب أو تأديب في يوم الحساب، خاصة إذا كان صابرًا محتسبًا بهذا المبدأ.. ﴿قُل يٰعِبادِ الَّذينَ ءامَنُوا اتَّقوا رَبَّكُم لِلَّذينَ أَحسَنوا فى هٰذِهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ وَأَرضُ اللَّهِ وٰسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصّٰبِرونَ أَجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ﴾(الزمر:١٠).

الخلاصة...

أن الأرض بتضاريسها وطقسها وطول أيامها قد هُيئت لتكون دار بلاء وابتلاء وليست موطن قصاص وعدالة وقضاء، فهي لا تصلح لتنفيذ أحكام الإكرام والعقوبة للعباد. فعمر الإنسان على كوكب الأرض قصير لا يتسع لتطبيق عقوبة أو مكافأة، لأن أصحاب القضية لا يقضون عليها إلا جزءًا يسيرًا من أعمارهم، وهي لا تتسع لكل البشر الذين مضوا والحاضرين والقادمين، فلو تم القصاص لأحدهم وحُكم له جزاء صبره بحياة خالدة ليس فيها كدر ولا نغص ولا مرض، ترى أي قطعة على الأرض تصلح لإقامة الخلود خالية من الأمراض وتقلبات الطقس! ولو وجدت فلن يتمتع بفترة الثواب لأن عمره المتبقي قصير جدًّا على الأرض، وكذلك لو حُكم على فاجر بعذاب مقيم، فإن فترة عمره المتبقية تحول دون تنفيذ مدة العذاب.. الأرض لا يمكن أن تكون دار ثواب وعقاب، فهي مجرد كوكب مؤقت يُدك وينتهي كما تنتهي الشمس والقمر.

١٠ - مكتمل في نسخته الأولى

كلما تقدمت التكنولوجيا أسفرت عن قدرة دماغ البشر، وكلما حقق هذا الدماغ تقدمًا في الإنتاج كشف عن طاقة من طاقاته الكامنة وقدراته الدفينة والتي لا تعد شيئًا في حقيقتها أمام قدرة خالق الدماغ التي لا يمكن أن يتصورها عقل بشر مخلوق، فلا يمكن أن يدرك مخلوق قدرة خالقه إلا بقدرما أعطاه من أدوات وقدرات يستكشف بها..

ولعل تطور التكنولوجيا وتقدمها اليومي يكشف لنا عما كنا عليه من تأخر، ففي كل طفرة أو جيل من الصناعات ندرك النقص والضعف والأخطاء في الأجيال السابقة، فيتم تحسينها وتطويرها في النسخ القادمة، وهكذا يستمر تطور الصناعة والعلم بناء على تطوير وتحسين مخرجات عقل الإنسان؛ وإذا أدركنا أن كل اكتشاف بشري لمَّا يبلغ بعْدُ النسخة النهائية أو الكمال المنشود.. فهنا ندرك عظمة الله في خلق الأشياء التي أبدعها وسواها مكتملة منذ النسخة الأولى ﴿الَّذِى أَحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلقَ الإِنسٰنِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة:٧)، فالشجرة مكتملة بعناصرها منذ أن خُلقت وهي تعطي نفس العطاء، ودماغ الإنسان الذي هو صنع الله منذ أن خُلق يحمل نفس القدرات، فلم تُضف له ذاكرة أو معالج مطور أو

ما يعزز قدراته، وكذلك عين الإنسان وأذنه وحواسه وكليته ورئته وقلبه وجميع أجهزته، كلها تعمل بذات الكفاءة منذ خُلق الإنسان، كل شيء مكتمل منذ التصميم الأول يعمل بنفس الطريقة وما يزال الإنسان حتى اليوم يستكشف أسرار خلقته وخلقة الأشياء من حوله؛ فيندهش كلما تقدم في أبحاثه وتجاربه حين يكتشف عظمة التركيب ودقة صنعة الخالق في بدنه، وما على الإنسان سوى تفجير تلك الطاقات الكامنة في دماغه والتي يقال بأنه لم يستخدم بعد سوى النزر اليسير منها.. فسبحان من أبدع في خلق كل شيء وتصميمه منذ الوهلة الأولى، فجعله على أكمل نسخة وأتمها دون حاجة لتطوير شكل أو تغيير مواصفات، فسبحان من بلغ الكمال وسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى!

الخلاصة: أن عقل الإنسان كنز محمول، يُتحصل منه بقدر الاجتهاد على تغذيته بمعلومات وتدريبات تجعل صاحبه أكثر قدرةً على تشغيله واستخدامه ليعطي نتائج مبهرة، فتأمل درجة الكمال الإلهي في عظيم خلقه وصنعه إذ خلق الإنسان منذ آلاف السنين وهو بذات المواصفات التي فُطر عليها، يتنقل في الأصلاب، وأنه لا تبديل ولا تغيير في خلق الله كما يزعم أصحاب نظريات التطور بعقولهم التي لم يسبروا بعد غور قدرتها وإمكاناتها، وقد بين الله ذلك بقول واضح: ﴿فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا فِطرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِ ذٰلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ﴾(الروم:٣٠).

فحتى هذا الزمن ما زال العلم والتدريب يكشف لنا يومًا بعد يوم عن طاقات العقل البشري وإمكاناته الجبارة التي أودعها الله منذ الأزل، فلا تبديل ولا تغيير ولا تحديث، ولكن حسن استخدام وسوء استخدام، حسن استخدام بتعلم وتدريب وبحث وتفكير وتأمل، وسوء استخدام بلهو وجهل وغفلة وتعطيله بالمخدرات والمسكرات.

١١ - التواصل غير المحسوس مع اللّٰه

لقد مكَّن العلم الحديث عقولنا من تقبل وتصديق حقائق لم تكن لتُصدقها عقول أصحاب القرون الماضية، حتى لو أثبتتها الدراسات والتوقعات العلمية آنذاك، حيث أن عقول البشر لا تصدق إلا ما كان ضمن دائرة استيعابها، كما حدث لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- حين وصف لقومه بيت المقدس بعد رحلة الإسراء والمعراج فلم يصدقه إلا قوي الإيمان برسالته، رغم أنه أتى بإجابة صحيحة دقيقة أبهرتهم، فما كان منهم إلا اتهموه بالسحر أو الجنون -كرمه الله وأعاذه– أما لو ادعى شخص في عصرنا الحالي أنه قد رأى حادثة وقعت البارحة في أقصى الأرض لصدقه الجميع كونهم يدركون إمكانية ذلك عن طريق وسائل التواصل الحديثة التي يعرفونها، أما لو قال أحدهم قبل قرن من الزمن بأن سكان القرن القادم سيرى ويتحدث كل فرد منهم مع الآخر متى ما أراد وفي أي موقع كان على الأرض دون حاجة إلى انتقال أو سفر فلن يصدقه عاقل في ذاك الزمن.. ولم يتخيل حتى مخترع الهاتف الأرضي في زمنه القريب أن الهاتف سيعمل دون سلك يربطه مع الهاتف الآخر، وبعد اختراع الهاتف النقال المقصور على المحادثة الصوتية لم نكن نتوقع أن نرى صورة المتحدث الآخر، ثم لم نكن نتوقع أن يحضر العالم في هواتفنا

من خلال التطبيقات الذكية وبرامج التواصل، لم نكن ندرك بأن هواتفنا مربوطة مع مصنعيها من غير درايتنا، كارتباط شركة (آبل) ونظرائها بملايين الهواتف التابعة لها بأيدي المستخدمين، تحميها من الفيروسات وتحديث برامجها بين فترة وأخرى، إلا بعد معايشة هذا الواقع، وإذا تيقنا الآن وأدركنا أن شركات تحديد المواقع لديها المقدرة على تحديد مواقعنا من خلال هواتفنا التي نحملها على أي بقعة من بقاع الأرض، بل تعطينا البيانات الدقيقة وتوجهنا لأي مكان نرغب الوصول إليه، وذلك من خلال برامج تحديد المواقع العديدة.. بعد هذا التقديم أصبح من المناسب التحدث عن موضوعي وهو وجود تواصل مع الله خالقنا لا نشعر به ولا ندركه، فإذا اقتنعنا أن شركة مصنعة تحفظ منتجاتها وتتابعها وتحميها، جهازًا جهازًا، فكيف بخالق المخلوقات يتركها دون حفظ ومراقبة ومتابعة! ﴿لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ مِن بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾(الرعد:١١)... ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾(ق:١٨).

ومما يزيد موضوعنا تدليلًا هو أن جميع تلك الأجهزة الذكية التي تحقق التواصل غير المحسوس بجميع أنواعها، إنما زُودت بعقل إلكتروني اقتباسًا ومحاكاةً للأصل، وهو الدماغ الذي خلقه الله وجعله مركز تحكم كل مخلوق حي وقدر فيه قوة الذاكرة وسعة التخزين وسرعة المعالجة، فجعل من الناس علماء لهم قدرة على حفظ المعلومات، ومنهم من

يتمتع بسرعة المعالجة، فتجده سريع الفهم والرد، ومنهم من لديه سعة الذاكرة السطحية فيتمكن من حل المواضيع المعقدة، كذلك جعل في الدماغ ما يمكنه أن يستلهم ويستوحي ويستقبل بعض الأفكاروالخواطر التي تتوارد نتيجة التفكير العميق والتأمل والتحليل، فلعل هناك تواصلًا غير محسوس بين الدماغ وخالقه لا يدركه صاحب الدماغ! كذاك التواصل الذي تمت الإشارة إليه بين الشركات وأجهزتها المحمولة، فما يتلقاه الدماغ من خواطر أو تفتح له من أفكار أو يراه من رؤى وأحلام، إنما هي من باب الإلقاء في الروع أو الإيحاء. ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلّا وَحيًا أَو مِن وَراءِ حِجابٍ أَو يُرسِلَ رَسولًا فَيوحِيَ بِإِذنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكيمٌ﴾ (الشورى:٥١)، ولكي يبقى الإنسان حيًّا كان لا بد من مشغل للدماغ لا ينفك عنه، إذ إن النوم الذي يفقد صاحبه الشعور والتحكم إنما هو عمل يقوم به ذات الدماغ ليمكّن صاحبه من الاسترخاء، فأمر تشغيل الدماغ موكل إلى الله، فهو جل في علاه يدبر أمر المخ بأدق تفاصيله وهو متصل به دون علمنا لأننا جملة وتفصيلًا لا ندرك ولا نعرف كيف تعمل عقولنا، كيف ترى المناظر والصور، وكيف تسمع، وكيف تشم، وكيف تتم معالجة تلك البيانات الضخمة! وكذلك إجراء عملية الصيانة لخلايا الجسم أثناء النوم...

الخلاصة... لقد أصبحنا في هذا الجيل أقرب للتصديق بأن هناك تواصلًا غير محسوس مع الله، فإذا كانت الشركات المصنعة تتبادل المعلومات وتتواصل مع هواتفنا التي أودعناها أسرارنا وهي تمثل

شخصياتنا فلا نسمح لغيرنا بالاطلاع عليها، ورغم ذلك فالمصنعون لديهم القدرة على تتبعها وكشف مخزوناتها وتعطيلها، فكيف بالمصمم الأكبروالأقوى الذي ألهم العقول أن تخترع، كيف به لا يعرف تفاصيل ما توسوس به الأنفس وعقولها وما تخزنه وما تقوم به! ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:١٦)، كيف يترك المخلوق دون حفظ وهو القائل -جل في علاه - ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ يَحفَظُونَهُ مِن أَمرِ اللَّه﴾(الرعد:١١-١١) كيف يتركه دون تواصل واطلاع على كل تفاصيله وهو القائل -جل في علاه- ﴿هُوَ الَّذى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضَ فى سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استَوىٰ عَلَى العَرشِ يَعلَمُ ما يَلِجُ فِى الأَرضِ وَما يَخرُجُ مِنها وَما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعرُجُ فيها وَهُوَ مَعَكُم أَينَ ما كُنتُم وَاللَّهُ بِما تَعمَلونَ بَصيرٌ﴾(الحديد:٤) وهو القائل كذلك –عز وجل- ﴿أَلا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ﴾(الملك:١٤)؟.

ومن أمثلة التواصل غير المحسوس تلك البيانات التي ترد في الرؤى والمنام فيرى الرائي تفاصيل ومشاهد لم يرَها مسبقًا في حياته ودليل أن بعضها ليس من تفاعلات الدماغ أثناء المنام، تلك الرؤى التي تتحقق في اليوم التالي بتفاصيلها، وإذا علمنا أن الغيب لا يملكه إلا الله، أدركنا إذن بأن بعض الرؤى إنما هي رسائل من رب العالمين، فيها من التبشير والتحذير، وأدركنا وأيقنا أن هناك تواصلًا غير محسوس بين العقل وخالقه، خارج علم الإنسان، وهناك غرفة تحكم بالدماغ لا يديرها الإنسان، تصدر منها الأوامر التشغيلية للأجهزة الحيوية كالنبضات

الكهربائية التي تشغل القلب، والأوامر التي تشغل الجهاز الهضمي والبولي والتنفسي وغيره، وكذلك مراكز التحكم بالغدد الصماء، كل تلك العمليات تدار بإرادة عليا وبرمجة فوق علم الإنسان، وهناك عملية صيانة يومية لخلايا الجسم تحدث أثناء فترة الخمول، وذلك حين تعرج النفس إلى بارئها بعد أن تستوفي الأجل اليومي، لأمر لا يدركه الإنسان، ثم تعود مرة أخرى بعد الاستيقاظ لتكمل ما تبقى من أجَل بحيوية ونشاط أفضل مما كانت عليه قبل النوم ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر:٤٢). ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:٦٠).

فإذا كان الإنسان يفقد السيطرة بمجرد نومه، إذن فمَن المتحكم؟! ومَن يعطي الأوامر لأجهزة جسمه أن تعمل بكل دقة لتقوم بذات العملية التي تجريها شركات الهواتف لصيانتها وتحديثها؟!

فسبحان من اتصلت به جوارحنا دون علمنا، المطلع على دقائق أسرارنا وما تمليه أنفسنا! ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:١٦)، وسبحان من ملك أمرنا وإليه مرجعنا! ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨٣).

١٢ - حين تنطق أداة الجرم!

حين يُستغنى عن الاستماع من المجرم، لا بد أن يكون الجرم جليًّا للقاضي، فهوليس بحاجة إلى دليل يبرهن له وقوع الجرم وإنما هي قضية إفحام مجرم وتثبيت أدلة الجرم، وأي دليل أقوى من شاهد قد شارك أو استعين به في تحقيق الجرم!

ترى هل تنطق اليدان والرجلان بلسان فصيح؟ أم هي كلغة الإشارة التي تتكلم بها الأيدي في الدنيا ويفهما الآخرون؟ ﴿اليَومَ نَختِمُ عَلىٰ أفوٰهِهِم وَتُكَلِّمُنا أَيديهِم وَتَشهَدُ أَرجُلُهُم بِما كانوا يَكسِبونَ﴾ (يس:٦٥)، أيًّا كان نطقها فلا شك أنه نطق جلي واضح يسمعه المجرم ليقر بإثبات جرمه، تتكلم اليد التي طالما امتهنت في الدنيا لإشباع رغبات النفس، ولطالما أُرغمت على ارتكاب ما يغضب خالقها، تتكلم اليد تقديرًا لما استخدمت فيه من بناء وتعمير وعون ومساعدة وصنع وتطوير وعلاج. كل حدث في الدنيا لا يخلو من مشاركة اليد، فهي التي تزرع وتطهو وتصنع وتشغل الآلة، وقد أُستخدمت الرِّجل للشهادة لأنها قرينة اليد وهي وسيلة النقل إلى مكان الحدث، بل هي مرتبطة بحركة اليد أثناء المسير... الأيادي والأرجل هي وسائل العمل والإجرام، فمبتور اليد والأرجل يعد قاعدًا، يصعب أن

يساعد أو يؤذي بشرًا، وخير شاهد وأقوى دليل لإثبات الجرم هي الأدوات التي استخدمت في تنفيذه، إذ يلجأ المختصون في الدنيا لأخذ العينات والحمض النووي لمطابقة استخدامها من قِبل الفاعل، أما يوم القيامة فلا داعي لمخبر الحمض النووي، إذ يكون التقرير جاهزًا بنطق الأداة نفسها، لا ليكشف عن استخدامها في جريمة معينة، بل لتتحدث عن جميع الجرائم، فأي دليل أقوى، وأي عرض للعدالة أبهر وأجلى وأسطع برهانًا حين تتكلم أداة الجرم بلسان فصيح!... فيا له من عدل ويا له من قضاء! فسبحان العزيز الحكيم الذي أنطق الشهود! ﴿وَقالوا لِجُلودِهِم لِمَ شَهِدتُم عَلَينا قالوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذى أَنطَقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيهِ تُرجَعونَ﴾ (فصلت:٢١).

١٣ - فتى الجنة

حين يبلغ الستين ينتاب المتعلق بالدنيا شعور بمضي قطار العمر؛ فتبدأ عوامل التراخي بالعمل، وتبدأ الهمم بالكسل، ولكن ثم شعور آخر يراود خلجات القلب، وهو لو أن الله أدخلك الجنة الآن قبل موتك وأعطاك فرصة لم يعطِها لسكان الجنة حيث أتاح لك فرصة العمل والعبادة وحدك، أما هم (أصحاب الجنة الذين فارقوا حياة الدنيا)، فقد نال كل منهم درجته واستقر، وقد رأيت بعينك درجة التفاضل بينهم، فمنهم من نال الدرجات العلا من الجنة، قد فضله الله بمزيد كرامة وهبات وأملاك، ومنهم من هو أقل من صاحبه ويتمنى لو كان بمنزلة صاحب الدرجة الأعلى، ولكن قد حُددت الدرجات واستقر كلٌّ في مكانه، أما أنت فما زالت خيارات الجنة مفتوحة لك لتترقى فيها لنيل أي درجة تتمناها، كونك غلام الجنة المستثنى بفرصة العمل والترقي التي لم تُعط لغيرك، هذا الشعور الافتراضي يجعلك تنطلق لبذل صالح الأعمال في الدنيا بمحرك جديد وعزم وقناعة وثبات وسرعة وعدم تردد، فما زلت من شباب الجنة، تخطط وتبني وتعمر وتقدم لها، فأنت حقًّا مستثنى الآن لأنك دخلت الجنة بفكرك وأنت ما زلت حيًّا في الدنيا تعمل لأجل جنتك، وهذا في حقيقته ليس افتراضًا، بل هو واقع تعيشه الآن قد كنت غافلًا عنه

وقد لُفِتَ نظرك إليه؛ حيث إنها دعوة من رب العالمين إليك ولكل مؤمن بربه ليكرمه ويرفع درجته في الجنة، فما عليك سوى أن تنسى ما فاتك من عمر الدنيا الذي مضى وتفرح بما تبقى من عمرك، أيًّا كان وضعك الصحي، فأقلها أنك قادر على الذكر والتسبيح، أما وأنك تملك الحركة فقد أُعطيتَ فرصةً لا تقدر بثمن لتعمل على بصيرة وبكل همة ونشاط، فكم يتمنى أقرانك الذين سبقوك إلى الجنة العودة لهذه المرحلة التي أنت فيها الآن ليضاعفوا أعمالهم الصالحة لما رأوه من نعيم وجزاء أجر بما كانوا يعملون!

الخلاصة: تذكر بأن فرصة العمل لن تطول، وربما تنتهي في أي لحظة، فتزود بكل محركات الدفع التي تجعلك تحلق عاليًا في رحاب الجنان، وركز على اختيار أفضلها وأقواها، وستعيش حياة جديدة كلها تفاؤل وأمل، وستكسب نشوة وروحانية لا يشعر بها غيرك، وتذكر بأن الجنة درجات، تنالها بعملك ولن يضيع جهد تبذله. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(الأحقاف:١٩). ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الحديد:٢١).

١٤ - العقل المعطوب

العقل المعطوب هو ذاك العقل الذي يعتريه خلل ما يبعده عن الصواب وإن اتصف صاحبه بالذكاء، فقد يكون فنانًا موهوبًا، أو رسامًا أو عازفًا أو حرفيًّا مبدعًا، لكنه قد ابتلي بلوثة عقل! فبرغم ما عنده من موهبة تجده يفتقر إلى كثير من القيم، أو تراه أهمل حياته فليس لديه أسرة أو مسكن. وهناك كثير من العقول المعطوبة التي تلوثت بقناعات وعقائد موروثة أبعدتها حتى عن محاولة التفكر في خلقتها، فقد أُشربت معتقداتٍ مضللة قبل نضجها، كعِبادةِ الشمس والبقر والنجوم وغيرها، وهذا ما أبعد أصحابها عن ممارسة التأمل والتفكر عند سن الرشد، ولعل أول ما يطرأ على ذي الفطرة السليمة بعد نضج عقله وإدراكه عدة أسئلة أولها: من أنا؟ ومن أين أتيت؟ ولماذا خُلقت؟ وكيف خُلقت؟ ومن خلقني؟... بل من خلق أبي وأمي ومن أعد بطنها ليكون حاضنًا لي أثناء فترة تكوني؟ ترى هل هي أمي؟! هل كانت قادرة على تشكيلي في بطنها؟ هل صممت هي شكلي واختارت لون بشرتي وقوام شعري وحجم بنيتي وقامتي وكل ما يحتاجه بشر مثلي كي يتكون ويخرج سليمًا؟ أم هي الأخرى محتارة لا تدرك كيف تسير الأمور، بل لم تكن تدرِي أذكرا كنت في بطنها أم أنثى؟! أحمر أنا أم أشقر؟! أسمر أم أبيض؟! بدين أم ضعيف؟! هادئ الطبع أم

مضطرب؟! وسيم أم قبيح؟! ولا شك أنها لاتدري عن ذلك شيئًا، فليس لها دخل في الموضوع عدا أنها خُلقت في الأساس كي تكون حاضنًا ومقرًّا يتم فيه خلقي وتكويني وقد حوى بطنُها أجهزة الإمداد والتموين اللازمة لذلك دون أن تدرك وتعي كيف يتم ذلك، فهي لا تدري عن شيء، إذن فمن يدري، ومن يتولى عملية تكويني في بطنها؟ أقرب الناس قد يكون أبي، أترى يدرك هو الآخر من الأمر شيئًا؟ أم أنه مخلوق مسيَّر عاشَر كما تعاشِر جلُّ المخلوقات ثم مضى إلى سبيله لايدري أحملت أمي أم لم تحمل؟! ترى هل هي الصدفة التي أوجدتني في بطنها كما أوجدت الآخرين؟ وهل الصدفة لها قدرات خلاقة؟ أم أنها الأخرى مجرد كلمة يستخدمها العاجز عن إثبات دليل وبرهان، فهي لاشيء؟!... إذن فمن خلقني في بطنها؟! إن أجدر من يمكن الالتفات إليه في هذا الموضوع هو من يملك القدرة على بيان تفاصيل ما يدور داخل البطن ويتطرق لكشف هذه التفاصيل التي لا يمكن أن يكشفها البشر المخلوق ذاته ولا أقرانه. فالمنطق والعقل يخرج أي مخلوق من القدرة على بيان أدنى تفصيل لذلك؛ إذن فعلينا أن نبحث عن مصدر يحدثنا من خارج دائرة البشر. فليس أمامنا سوى خبر نسمعه من الخالق ذاته قد نُقل إلينا أو أوحي به إلى بشر منا يكشف لنا سر ذلك، أو نسمع بآذاننا مباشرة صوتًا يحدثنا من غير البشر. أو نقرأ ذلك في كتاب قد أملاه وحي من السماء ليقوم البشر بتناسخه ونشره فيما بينهم. فحين يبحث المهتمون والمتأملون والباحثون، لن يجدوا كتابًا على وجه الأرض يتطرق إلى موضوعنا ويتناوله بتفاصيل عجيبة غريبة مبهرة إلا في كتاب

يجب أن يكون أصل خبره ووحيه من السماء، ولن تجد البشرية كتابًا أصدق وأوضح وأفصح بيانًا من القرآن العظيم، ويكفي القرآن تصديقًا بأنه من عند الخالق بيان هذا الموضوع وحده، إذ لا يمكن سرد تفاصيل خلق الإنسان في داخل البطن سوى من قام بعملية الخلق نفسه، فقد ذكر هذا الموضوع في أكثر من موضع، فقال - تبارك وتعالى-: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الغَيبِ وَالشَّهٰدَةِ العَزيزُ الرَّحيمُ ۝ الَّذى أَحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلقَ الإِنسٰنِ مِن طينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسلَهُ مِن سُلٰلَةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ ۝ ثُمَّ سَوّىٰهُ وَنَفَخَ فيهِ مِن روحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصٰرَ وَالأَفـِٔدَةَ قَليلًا ما تَشكُرونَ﴾ (السجدة:٦-٩)، ثم زاد بيانا وتأكيدا وتفصيلا: ﴿وَلَقَد خَلَقنَا الإِنسٰنَ مِن سُلٰلَةٍ مِن طينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلنٰهُ نُطفَةً فى قَرارٍ مَكينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقنَا العَلَقَةَ مُضغَةً فَخَلَقنَا المُضغَةَ عِظٰمًا فَكَسَونَا العِظٰمَ لَحمًا ثُمَّ أَنشَأنٰهُ خَلقًا ءاخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحسَنُ الخٰلِقينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم يَومَ القِيٰمَةِ تُبعَثونَ﴾ (المؤمنون:١٢-١٦).

فأوضح أن خلق الإنسان الأول كانت من الطين، أما بقية البشر فمن مادة اللقاح التي يخلقها في الأصلاب، فيلفت الأنظار إليها ليؤكد تفرده بخلقها وعجز البشر عن ذلك فيقول – جل وتبارك وتعالى - ﴿أَفَرَءَيتُم ما تُمنونَ ۝ ءَأَنتُم تَخلُقونَهُ أَم نَحنُ الخٰلِقونَ﴾ (الواقعة:٥٨-٥٩)؟.

ثم يكشف لنا بعض أسرار العملية في الآية السادسة من سورة الزمر، حين كشف لنا مكان التخليق داخل البطن والذي لم يكن يعرفه بشر قبل ذلك سوى أنه داخل البطن، فأول الكشف والتفصيل والإعجاز

بيان ذلك بقوله -وهو الخلاق العليم-: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (الزمر:٦).

وهنا يشير إلى الظلمة الأولى وهي ظلمة البطن، والظلمة الثانية وهي المصنع الذي يتم فيه التكوين وهو الرحم، والظلمة الثالثة وهي غرفة التصنيع داخل الرحم وهي المشيمة المملوءة بالماء التي يتم فيها خلق وتكوين الجنين الضعيف جدًّا، فكان لا بد من تخصيص مكان آمن ضد الضربات والصدمات والعصرات، وكذلك أوساخ البطن وعصاراته الهاضمة الحارقة، ثم بعد ذلك أعطى بعض التفاصيل الشاملة للعملية منذ بدايتها في الآية الخامسة من سورة الحج:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج:٥) ....

لقد أخذتني الدهشة حين تأملت كيف جهز الخالق بطن أمي كي يكون مكانًا مهيأً لتكويني! كيف أوصل حبل السرة بشرايينها كي يغذيني من دمها وجعل في بطنها هالة ماء تحيطني كي تنمو فيها عظامي الطرية

الغضة كي لا تتهشم، ثم أحاطني بكل ما يلزم من مرطبات ومضادات ومغذيات، وشكلني فركّب فيَّ العيون والأذن والأطراف وجميع الأجهزة من شم وذوق وسمع وحس وهضم وتنفس وأجهزة دقيقة عجيبة متطورة، وأكثرها دقة وتعقيدًا ذلك الجهاز العصبي الذي تنتشر خلاياه على كل جزء دقيق من جسمي! ترى هل هي أمي التي قامت بمد تلك الحبال العصبية الدقيقة بنسيج متشابك ليتصل بكل جزء من جسمي فيولد الشعور بالحر والبرد والألم والحس واللمس؟! ترى أهي أمي التي قامت بمد شبكة الجهاز الدوري المكون من القلب والكلى ونسيج الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية الدقيقة جدًّا والتي تُقدر أطوالها مجتمعة بآلاف الكيلومترات، من أين أتت بتلك الشعيرات وتلك الوصلات الدقيقة؟! أترى أن بشرًا يستطيع إنجاز ذلك؟! ثم تمم ذلك بتركيب الدماغ المعجز، مركز إدارة كل تلك الأجهزة، ثم أوجد الغدد العجيبة التي تحدد حجم كل شيء في جسمي وتحفظ توازن التركيب والقوام، ثم يا ترى من أين جاء ذلك السر الدفين العجيب الغريب، كيف بدأت أتحرك بعد أربعة أشهر في بطنها؟! من أعطاني القدرة على ذلك؟! تلك الحياة التي دبت في أوصالي من أين أتت؟! من نفخ في تلك المضغة والتي هي أصل تكويني؟! من نفخ فيَّ الروح التي ما زلت عالقة بجسمي وأنا حي بها الآن؟! من أرسلها؟! من خلقها؟! أليس عجيبًا أمرها وسرها؟!، أترى هي أمي التي نفخت الروح!؟ (مسكينة تلك الأم العاجزة التي تبكي ولدها إذا مات أمامها وهي غير قادرة على إمساك روحه أن تخرج أو تعيدها لجسمه، فهي لا تدرك من أمر

الروح شيئًا!) ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(الإسراء:٨٥) ثم بعد أن أكملت مدة النضج في بطنها ولدتني طفلًا، ويا عجبًا للمعجزة الكبرى التي غفل عنها البشر، تلك التي تحصل لحظة الولادة! كنت في بطن أمي قبل ثوانٍ معدودة لا أعرف كيف أتنفس، ولو تنفست قبل ثانية من خروجي لامتلأت رئتيَّ ماءً ولفارقت الحياة، وعند لحظة خروجي لو أمسكت عن النفس لثوانٍ معدودة لانعدم الأكسجين من رئتي ثم فارقت الحياة! ترى من منعني من التنفس في بطنها، ومن ألهمني إياه بعد خروجي؟! من علمني كيف أسحب الهواء لرئتي دون سابق عهد به وخبرة؟! ألا يكفي هذا الحدث أن يجعلني موقنًا بخالقي؟! ثم بعد خروجي من البطن، من هداني للرضاعة من صدرها؟! ترى من در اللبن في ثديها ولم يكن له أثر قبل ولادتي؟! من شحنها بعاطفة الأمومة المتدفقة وشحنها بالحنان كي تتعهدني بالرضاعة وتحوطني بذلك الحب والعطف حتى أكبر؟! ترى من سكب في وجدان الأمهات بمختلف أجناسها كل تلك المحبة المتدفقة الخاصة بمواليدها؟! وبعد أن تعديت سن المهد والطفولة، وبعد أن مررت بفترة تكوين وبناء لعقلك وقدراتك الذهنية والجسمية، حين اكتمل لديك النضج الجسمي والعقلي وأصبحت قادرًا على التفكر والتأمل، ترى أي موضوع يجب أن تبدأ به لتسير في هذه الحياة سير الآمن المطمئن؟! ألا يجب أن تبحث عن الحقيقة كما بحث عنها صاحب حي بني يقظان؟... ألم يتبادر إلى ذهنك يومًا سؤال يقول لك: من أنت؟ من أين أتيت وكيف خُلقت ولماذا خُلقت؟... ألم تنظر

إلى أطرافك كيف تعمل؟! ألم تقارن خلقتك وهيأتك بباقي المخلوقات الحيوانية التي تشاركك الوجود على هذا الكوكب؟! ألم تنظر إليها، بعضها يزحف على بطنه وبعضها يمشي على رجلين وبعضها يمشي على أربع؟! ألم تقارن قدراتك الحركية مع قدراتها؟! ألم تدرك بأن تصميم شكلك هو أرقى تصميم من أي مخلوق آخر من حيث القوام والاعتدال والخفة والحركة والحجم والاستواء والاستقامة؟! ألم تتأمل في أطرافك وأناملك التي تمكنك من تناول الأشياء الدقيقة واستخدامها بل وإعادة تشكيلها وتدويرها وتصنيعها وتمكنك من إنجاز أدق المهام مما لا يقدر عليه سائر أقرانك من المخلوقات على ظهر الكوكب؟! ألم تدرك بأنك تمتلك قدرات هائلة وأنك تميزت عن تلك الأقران بعقل مدبر مفكر مبدع؟! ألم تدرك أن ثمة مخلوقات على هذه الأرض بل في هذا الكون خُلقت من أجلك وأقرانك تحديدًا لخدمتك؟! ألم تنظر إلى الأشجار من حولك تعطيك أجود ما تنتجه وهي ثمارها، وتعطي الورق والعلف للحيوان كي يعيش ويتربى من أجل إطعامك أيضًا لبنًا ولحمًا؟! ألم تدرك بأن جُل المخلوقات سُخرت لخدمتك، حشرات تنتج لك العسل وديدان تنتج لك الحرير وبحار تحوي لك الأسماك؟!... ألم تدرك بأنك المخلوق المدلل، فالدواجن والأنعام قد سُخرت لك تأكل لحمها ولبنها وتلبس جلدها وتتدفأ بأوبارها؟! وسخرت لك الخيل والبغال والحمير والجمال تتنقل عليها وتحمل أثقالك، حتى الأرض سُخرت لك، تستخرج نفطها ومعادنها التي أوتيت القدرة على تطويعها وإعادة تصنيعها، ألم تدرك بأنك أكثر دلالًا حين سُخرت لك الملائكة

تحفظك وترعاك؟! ﴿وَإِنَّ عَلَيكُم لَحٰفِظينَ ۝ كِرامًا كٰتِبينَ﴾(الانفطار:١٠ - ١١)... بعد هذا كله ألم تقف يومًا تسأل من سخر كل هذا ومن أتى بهذا؟! ألم تسأل نفسك لمَ كل هذا؟! لماذا أنا مخلوق؟! ألم يهدك ذلك إلى خالقك؟ ألم تسمع أو قيل لك بأن رسلًا قد أرسلوا إليك ليبينوا لك تلك الحقيقة ويلفتوا نظرك إلى تلك المسائل؟... ﴿رُسُلًا مُبَشِّرينَ وَمُنذِرينَ لِئَلّا يَكونَ لِلنّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللَّهُ عَزيزًا حَكيمًا﴾(النساء:١٦٥) رسلًا وأنبياء قد أرسلهم الخالق لتنبيه الغافلين وليلفت أنظارهم إلى التأمل والتدبر، وأنزل إليهم كتبًا ليقرأها البشر فلعلهم يتدبرونها ويتلونها، ولعلهم يتفكرون، ولعلهم يعقلون، ولعلهم يؤمنون، ولعلهم يوقنون ولعلهم يرشدون!... ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرءانَ وَلَو كانَ مِن عِندِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدوا فيهِ اختِلٰفًا كَثيرًا﴾(النساء:٨٢) ترى هل أوجدتنا الصدفة كما يعتقد البعض؟! هل من يقول ذلك عاقل أم مضطرب العقل والتفكير؟! أيعقل أن تصف الصدفة أسنانك بهذه الطريقة؟! أيعقل أن تُركب عيونك في تجويف عظمي ليحميها بمحض الصدفة؟! هل نبتت الأهداب صدفة أم أن الدموع التي تحفظها من الجفاف جرت صدفة؟! من زينها بحواجب وأهداب تحميها وتجمِّلُها؟! من ركب قرنيتها؟! من نسج شبكيتها؟! من جعل مركز بؤرتها يتغير تلقائيًّا بما يتناسب مع بعد الجسم المنظور ليسقط على الشبكية انعكاسًا دقيقًا فترى القريب والبعيد بكل وضوح لتغنيك عن نظارتي القراءة والرؤية البعيدة دون أن تشعر بذلك؟! من ركب فيها ماءها؟! من أعطاها سحر الجمال؟! من أودع فيها بصمتها التي

تنفرد بتفاصيل خاصة لا تتشابه مع بصمة أي بشر آخر؟! ترى أيحدث هذا صدفة؟!! أم أنها قدرة أمي العاجزة، أم هي قدرة أقرانها من البشر العاجزين حتى اليوم مجتمعين عن صنع عين لمولود ضرير أو إعادة بصر لمن فقد عينيه؟! كانت العين مجرد مثال لأسرار عظمى في تركيبنا وبنيتنا، ولا بد لي أن أختصر.

الخلاصة:

أيبقى بعد هذا الاستطراد شك في أن وراء خلقتنا وتكويننا خالقًا؟! أليس من الأجدر بنا التسليم والالتفات إلى ما يريده الخالق منا بعد هذا البيان؟ لماذا يغلب علينا كبشر طبع الجحود والنكران والجدل رغم كل هذه القناعات والبراهين والأدلة القوية الساطعة؟! أم هو تصديق أيضًا لمواصفات وضعها الخالق فينا حين قال: ﴿وَلَقَد صَرَّفنا فى هٰذَا القُرءانِ لِلنّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الإِنسٰنُ أَكثَرَ شَيءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤)؟!.

﴿أَوَلَم يَرَوا أَنَّ اللَّهَ الَّذى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضَ قادِرٌ عَلىٰ أَن يَخلُقَ مِثلَهُم وَجَعَلَ لَهُم أَجَلًا لا رَيبَ فيهِ فَأَبَى الظّٰلِمونَ إِلّا كُفورًا﴾ (الإسراء:٩٩)

أي حماقة يرتكبها من يعزو ذلك للصدفة التي لا معنى لها والتي يستحيل أن تخلق وتركّب وتنسِّق وتقدِّر كل شيء بدقة متناهية؟! إنه مستحيل مقطوع.

لقد أُجريت تجربة بوضع عشر بيضات تم ترقيمها من واحد إلى عشرة في علبة، وطُلب من أحدهم إخراجها متسلسلة الأرقام، يقول الباحث بأن نسبة النجاح في ذلك هي واحد من مليون، وعلى أصحاب نظرية الصدفة

التيقن من ذلك بأنفسهم، إذن فكيف يكون صدفة تركيب وخلق مخلوق يحتاج إلى ملايين التركيبات الدقيقة كي يتكون؟! إن من يعزو آيات الخلق للصدفة وقد وهبه الله عقلًا إنما يرتكب حماقة يستحق عليها العقوبة والعذاب.

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾(الأنعام:١٥٧).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾(الأنعام:٤٦).

فاحذر كل الحذر أن تعطب عقلك بالجدل من غير علم ويقين!

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(الحج: ٨-٩).

واحذر كل الحذر من أصحاب العقول المعطوبة، فلو كانوا أسوياء لما جعلوك مخلوقًا بمحض الصدفة أو أوجدتك الطبيعة التي لا يجدون تفسيرًا لمعناها، سوى أنها كلمة انهزام وهروب!

١٥ - دلالات العبادة وقيمها

صلاة الفرائض... هي معيار تجديد العهد، وهي محطات شحن يومية يثبت فيها الحضور في سجل لقاء الله وتجدد بها هوية الإسلام.

السنن قبل الصلاة وبعدها... ترفع من قيمة الصلاة حين تسبقها وتعقبها؛ فتكون بمثابة الحارس أو الغلاف الذي يزيد ويرفع من قيمة ما بداخله فترفع الصلاة محفوفة بالسنن تتقدمها وتعقبها.

النوافل الأخرى كصلاة الشروق والضحى ... تلك ساعات مخصصة لفئة دون غيرها للقاءات استثنائية خاصة بالله. مثلها كمثل مواطن أعطي فرصة لمقابلة الملك أو السلطان بمفرده، أما أداء تلك النوافل فتكشف حقيقة الانتماء وصدق التعلق بالله.

قيام الليل... يسفر عن درجة من درجات التضحية في سبيل الله، فقد ضحى القائم بلذة النوم ونعومة الفراش من أجل الله ورغبة لما عند الله بحرية اختياره. فقيام الليل يكشف عن معدن الإيمان وصدق التعلق بالله. فلا يمكن أن يترك متعة النوم وراحة الفراش إلا متعلق مؤمن بوعد الله مرتجيًا ما عنده بقناعة صادقة حيث لا يرتجي القائم ثناءً أو سمعة من بشر، فقد قام في بيته في جنح الظلام.

الصيام.. لن يصوم إلا مؤمن صادق الإيمان، ولن يخوض حرب مقاومة المعدة وتقلصاتها لطلب الطعام إلا مجاهد يرتجي ثمرة صيامه، فالصيام برهان إخلاص يقدمه العبد لربه، إذ لا يمكن أن يؤدي الصوم إلا أمين، حيث يمكن إبطال الصيام بأيسر الأسباب وكل مغريات الإبطال متوفرة للصائم من مشرب ومأكل وخلوة فحتى أثناء وضوئه، يتمكن من تسريب الماء إلى جوفه دون أن يشعر من حوله.. فالصيام جهاد حقيقي للوصل إلى مرضاة الله؛ لذا تعهد المولى في الحديث القدسي بالجزاء فقال: "إلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فِيهِ (فمه) أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"[١]. حيث إن الصوم لا يمكن أن يساوره الرياء.

الزكاة.. تلك العبادة العظيمة هي مقاسمة النفس حبها، أو هي انتزاع جزء منها إذ المال يكون مقدمًا حتى على النفس، فيحرم البخيل نفسه من الصرف على نفسه حبًّا للمال، فتأتي الزكاة لتقاسمه محبوب النفس والروح، فلا يخرج الزكاة إلا مؤمن بثمارها خائف من حساب الله.

الصدقات... تلك منزلة أعلى من الزكاة، فالزكاة يؤديها العبد التزامًا وطاعةً، أما الصدقة فتخرج طواعية.. الزكاة غالبًا ما تؤدى خوفًا من الحساب، أما الصدقة فتؤدى رغبةً في مضاعفة الثواب. الزكاة دين في

١. (رواه البخاري)

رقبة كل مسلم، فينال مؤدي الزكاة شهادة الإعفاء الضريبي عند أدائها ليكمل بها أركان إسلامه، بغض النظر عن حجمها، فهي مرتبطة بنسب محددة، فيثاب فاعلها ويحاسب تاركها، أما الصدقة فلا يحاسب تاركها ولكن يُكرم ويثاب فاعلها، فهي معيار تفاضل وترقٍ في الأجر والدرجات.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... معيار الوعي، تلك عبادة النخبة المفلحين إذ هي فرض كفاية ﴿وَلتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدعونَ إِلَى الخَيرِ وَيَأمُرونَ بِالمَعروفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَأُولٰئِكَ هُمُ المُفلِحونَ﴾(آل عمران: ١٠٤)، فتسقط عن البقية إذا قام بالدور فئة منهم، تحصل بهم الكفاية ويتحقق بهم المقصود، ويؤثم الجميع إذا لم يقم أحدهم بهذا الدور، أو قام به من لا تحصل بهم الكفاية، فحامل هم إصلاح نفسه وإصلاح غيره لا شك أنه بمرتبة أعلى عند الله، ولا تستقيم أمور المجتمع إلا بوجود المصلحين الغيورين، ولا تُحفظ محارم الله كالأعراض والأموال والأنفس إلا بوجود الوعي والقيم التي يبثها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فمن كان همه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه يتبوأ منازل المصلحين والرسل لأنهم بعثوا من أجل هذا الغرض، فهنيئًا لمن كان همه الصلاح والإصلاح، ولا يفعلها إلا أصحاب الهمم العالية إذ السواد الأعظم من البشر يقتصر همهم على شخصهم وذويهم.

خدمة المجتمع - معيار الوجاهة:

إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبطًا بفئة لديها شيء من العلم والمعرفة بأمور الدين، فإن خدمة المجتمع قد لا تحتاج إلى تأهيل وفقه، بل هي متاحة لأبسط الناس، فخدمة المجتمع ليس لها معيار ثابت، يقوم بها الغني والفقير، وصاحب الوجاهة وصاحب المهنة. خدمة المجتمع تضافر من أجل الصالح العام، تسري في دم كل محب لمجتمعه ووطنه وأمنه والإنسانية، وفي كل مجتمع تجد المتطوعين الباذلين المضحين بجهدهم ووقتهم ومالهم، يقدمون ويخدمون دون مقابل، فهم حلقة الترابط في مجتمعاتهم، ولا شك أنهم يحوزون على درجة عالية من رضا الناس وحبهم، وهذا ما يرفع درجتهم ومقامهم عند الله، فهم أشبه بالمجاهدين في سبيل الله.

١٦ - محاور التحدي في سورة الواقعة

من خلق مادة الحياة؟ من أحيا البذرة الميتة؟ من أشعل النار؟

من أنزل الماء من السحاب؟

لقد طرح الخالق هذه التحديات الأربعة على شكل أسئلة في سورة الواقعة، حيث لا يلتفت إليها كثير من القراء بل يعتبرها البعض من المسلمات والبديهيات التي يمكن أن يمارسها أي منهم لتتحقق، ما عدا إنزال المطر فإنه يحتاج إلى ظروف مناخية كي ينزل.. لا شك أن إجابة كل مؤمن ستكون (الله)، وغير المؤمن يعد ذلك من المسلمات التي تحدث بأفعال الطبيعة دون أن يلتفت إلى سر المعجزة!!

لقد استفتح المولى الحوار بأصل القضية، ليذكرنا بمستوى طرفي التحدي، ليقول لنا اعرفوا قدركم فأنا خلقتكم وأوجدتكم من عدم وما ألفت إليه نظركم فأنا خالقه ولستم أنتم فانتبهوا وتعقلوا، فأشار إلى ذلك بقوله-جل في علاه-: ﴿نَحنُ خَلَقنٰكُم فَلَولا تُصَدِّقونَ﴾(الواقعة:٥٧)، ثم بدأ بالمحور الأول: ﴿أَفَرَءَيتُم ما تُمنونَ أَأَنتُم تَخلُقونَهُ أَم نَحنُ الخٰلِقونَ﴾(الواقعة:٥٩) لو حاورت أحدهم: من خلقك أو كيف خُلقت؟

فسيكون جوابه المنطقي أنه خُلق من أم وأب إذ لا يمكن للأم أن تلد بدون أب، أو لأي أنثى من المخلوقات بدون لقاح، والسؤال: من أنتج مادة اللقاح؟ هل الأب أو الذكر قادر على إنتاج مادة اللقاح بإرادته وقدرته وقوته؟ وهل يملك أن يجعلها فعالة تحمل خصائص التلقيح؟ إذن فلِمَ لا ينتجها العقيم؟! وهل يستطيع أحدهم أن ينتج هذه المادة بصنع يده أو يشرح كيف خلق سائل اللقاح الذي يخرج منه؟ وهل يستطيع أن يحدد نوعه إن كان سينتج ذكرًا أم أنثى؟ ﴿ أَفَرَءَيتُم ما تُمنونَ ﴾(الواقعة:٥٩)؟... هذه المادة التي هي سبب وجودكم، هل لكم القدرة على خلقها؟ ﴿أَأَنتُم تَخلُقونَهُ﴾(الواقعة:٥٩)؟... هل يستطيع بشر أن يخلق هذا الماء الذي يخرج منه دون حول منه ولا قوة؟ ألا يحمل عقلًا يدعوه للتفكر في خصائص هذا الماء وتكوينه، ومن أودع فيه الحيوانات السابحة التي يقدر عددها بالملايين في كل مليلتر، ولكل حيوان رأس وذيل طويل يمتلك القدرة على تلقيح البويضة في رحم الأنثى من أجل إخصابها ليبدأ تكوين خلق الإنسان في رحم الأم بمراحله المختلفة؟ ومن نفخ فيه الروح بعد ذلك؟ هل يمتلك ملحد أو منكر جوابًا غير قدرة الخالق الله وحده على ذلك؟ من يعزو ذلك للصدفة أو للطبيعة فلا شك أنه قد أقر بالعجز، فلا يملك إلا أن يهرب وراء سراب يحسب أنه سيواري سوأة عقله! ثم يعقب المولى بعد أن تتعذر الإجابة منهم ليثبت لهم عجزهم ويقيم حجة ضعفهم حين ذكرهم كذلك بقوله -جل في علاه -: ﴿نَحنُ قَدَّرنا بَينَكُمُ المَوتَ وَما نَحنُ

بِمَسبُوقِينَ۝عَلىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمثٰلَكُم وَنُنشِئَكُم فِي مَا لَا تَعلَمونَ۝وَلَقَد عَلِمتُمُ النَّشأَةَ الأُولىٰ فَلَولا تَذَكَّرونَ﴾(الواقعة:٥٩-٦٢)، فهل بعد هذه الحجج بيان؟!

التحدي الثاني .. ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾(الواقعة:٦٣)؟.

مزارع أو فلاح تقتصر قدراته على عملية نبش التربة وإعطاء الأسمدة ووضع البذرة ثم سقيها بالماء، كلها مجرد أسباب، هل يعلم المزارع ماذا يدور في باطن الأرض بعد أن قام بعمله ومضى؟! إذن فمن يدبر عملية تخليقها وإنباتها تحت التراب؟ من يجعلها تتفاعل حول محيطها فتخرج من بطن الأرض كما يخرج الجنين من رحم الأم؟ من بث روح الحياة في البذرة الميتة ليخرج منها زرع حي؟ أليس هو نفسه الذي بثها في المضغة؟ أليست ظلمة الأرض التي تحتوي البذرة كظلمة الرحم الذي يحتوي الجنين؟ ﴿خَلَقَكُم مِن نَفسٍ وٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوجَها وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ الأَنعٰمِ ثَمٰنِيَةَ أَزوٰجٍ يَخلُقُكُم فِي بُطُونِ أُمَّهٰتِكُم خَلقًا مِن بَعدِ خَلقٍ فِى ظُلُمٰتٍ ثَلٰثٍ ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ المُلكُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّىٰ تُصرَفونَ﴾(الزمر:٦).

التحدي الثالث: ﴿أَفَرَأَيتُمُ الماءَ الَّذى تَشرَبونَ﴾(الواقعة:٦٨) ؟.

لقد توصل علم الإنسان إلى معرفة تركيبة الماء وهي: أن كل جزيء من الماء هو اتحاد ذرتي هيدروجين مع ذرة أكسجين، وقطرة ماء واحدة تحتوي على ملايين من هذه الجزيئات، والسؤال: من خلق غاز الهيدروجين

والأكسجين وركب ذرتي هيدروجين مع ذرة أكسجين لينتج الماء الذي قام الإنسان بعد قرون من الزمن بتحليل تركيبته فوجده كذلك؟! من خلق الماء وأصل مواده؟! من أنزله من السماء وأسكنه الأرض؟! ﴿وَأَنزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسكَنّٰهُ فِي الأَرضِ وَإِنّا عَلىٰ ذَهابٍ بِهِ لَقٰدِرونَ﴾ (المؤمنون:١٨) ولما علم الله نكران عقول البشر وتجاهلها لأعظم مادة تحيا بها وهي الماء ردهم إلى جادة التأمل بهذا السؤال ليتفكروا ﴿أَفَرَءَيتُمُ الماءَ الَّذى تَشرَبونَ ۝ ءَأَنتُم أَنزَلتُموهُ مِنَ المُزنِ أَم نَحنُ المُنزِلونَ﴾ (الواقعة:٦٨ - ٦٩) هذا الماء الذي عرفتم الآن تراكيبه، هل أنتم ركبتم ذرتي هيدروجين مع ذرة أكسجين فجعلتموه سحابًا ثم أنزلتموه ماءً يسقيكم ثم يسكن باطن الأرض في طبقات قريبة تخزنه لكم لتستخرجوه متى شئتم؟!!

﴿لَو نَشاءُ جَعَلنٰهُ أُجاجًا فَلَولا تَشكُرونَ﴾ (الواقعة:٧٠)

(أَيْ زُعَاقًا مُرًّا لَا يَصْلُح لِشُرْبٍ وَلَا زَرْع "فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ "أَيْ فَهَلَّا تَشْكُرُونَ نِعْمَة اللَّه عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَاله الْمَطَر عَلَيْكُمْ عَذْبًا زُلَالًا")[1] ﴿هُوَ الَّذى أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُم مِنهُ شَرابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمونَ ۝ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرعَ وَالزَّيتونَ وَالنَّخيلَ وَالأَعنٰبَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرٰتِ إِنَّ فى ذٰلِكَ لَءايَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ (النحل:١٠ - ١١)

١.تفسير القرآن العظيم > ابن كثير > سورة الواقعة

الاستدلال الرابع: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ﴾(الواقعة:٧١)؟.

كثير من البشر لا يدرك أن النار نعمة عظيمة، ويعتقدون أن الذي اكتشف النار هو صاحب الفضل على البشرية في إيجادها وإشعالها، ويعتقدون أن النار تشتعل وحدها إذا توفرت لها شرارة البداية مع الوقود بمختلف أنواعه كالخشب أو الغاز أو جميع المواد المشتعلة، ولا يظن بشر أن يصيب شعلتها يومًا شلل فلا تشتعل، كما أصاب حرارتها ذات الشلل فلم تحرق خليل الله حين عطل المولى تلك الخاصية فيها، لم يلتفتوا كيف تشتعل النار ومن يشعلها، بل يتبادر إلى ذهن القارئ حين يقرأ قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾(الواقعة:٧٢) يتبادر إلينا أغصان وجذوع الأشجار اليابسة فهي وقود الاشتعال، وقد ذكر ابن كثير: "أن لِلْعَرَبِ شَجَرَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا "الْمَرَخ" وَالْأُخْرَى "الْعِفَار" إِذَا أُخِذَ مِنْهُمَا غُصْنَانِ أَخْضَرَانِ فَحُكَّ أَحَدُهمَا بِالْآخَرِ تَنَاثَرَ مِنْ بَيْنهمَا شَرَر النَّار"[١]، ولعل الآية الكريمة تحمل معنى آخر لشجرة النار وهي شجرة الشعلة ذاتها، وقد وصفها الله بالشجرة لأنها شعلة تشبه الشجرة في تمايلها مع الهواء وفي أشكالها التي تتخذها، فهي تأخذ شكل الشجرة في فروعها وأغصانها حسب نوع الوقود وكميته، إن كان خشبًا أو مواد أخرى وكذلك ظروف الهواء الذي يحيطها. إنها معجزة من معجزات الله، جعل

---

١. تفسير القرآن العظيم > ابن كثير> سورة الواقعة

فيها الضياء والحرارة والمتاع وجعلها تذكرة ومتاعًا، وهب أن أحدهم يومًا فتح طباخ الغاز وقدح الشرر ولكن شجرة النار لم تظهر، أو سكب وقودًا على الخشب وسلط عليه الشرر ولكن شجرة النار لم تظهر، حينها سيدرك البشر أن لا حول لهم ولا قوة، وأن شجرة النار خلق من خلق الله، لا تنشأ إلا بأمره، وسيدركون معنى ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ (الواقعة:٧٢)... سيدركون لو عطل الله خاصية الإحراق والنور فيها معنى قوله -جل في علاه- ﴿نَحنُ جَعَلنٰها تَذكِرَةً وَمَتٰعًا لِلمُقوينَ﴾ (الواقعة:٧٣) حين تتجمد أوصالهم من البرد، وحين تتعطل محركات الحياة التي تعمل جلها بالحرارة والاشتعال، فتعمل بها المصانع ووسائل النقل بأنواعها، وتُطوَّع بها المعادن، وتعد بها الأطعمة، بل ترتكز حياة البشر على النار، فتبارك من جعلها تذكرة ومتاعًا! وعجبًا لمن تغافل عن آياتها في الدنيا فلم تذكره بنار الآخرة! ألا يخاف أن يعذب بها يوم القيامة؟! ﴿فَسَبِّح بِاسمِ رَبِّكَ العَظيمِ﴾ (الواقعة:٧٤). "أَيْ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاء الْمُخْتَلِفَة الْمُتَضَادَّة الْمَاء الزُّلَال الْعَذْب الْبَارِد وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أُجَاجًا كَالْبِحَارِ الْمُغْرِقَة وَخَلَقَ النَّار الْمُحْرِقَة وَجَعَلَ ذَلِكَ مَصْلَحَة لِلْعِبَادِ وَجَعَلَ هَذِهِ مَنْفَعَة لَهُمْ فِي مَعَاش دُنْيَاهُمْ وَزَجْرًا لَهُمْ فِي الْمَعَاد" (١)

١. تفسير القرآن العظيم > ابن كثير> سورة الواقعة ٧٤

الخلاصة... لا بد أن تكون لنا عقول نبصر بها، وآذان نسمع بها، ونقبل الحوار ولا نعارض كل استدلال مقنع يكشف جهلنا وغفلتنا، يجب أن ندرك أننا نحمل عقولًا مخلوقة لها قدرات محدودة لا يمكن أن تتعدى قدرات تفكير البشر، وقد أورد الله تلك المحاور الأربعة وأسئلتها لا للإجابة عليها، بل ليفتح أذهاننا ويلفت أنظارنا بأن ما تعودنا عليه من طبائع الأشياء وخواصها إنما هو تسخير من الله لنا، علم آبانا آدم من قبل، وهدانا كيف نستخدم أدواتها، فجعلها من نواميس الكون الثابتة، فالنار تحرق، والماء يروي ويطفئ النار ويحمل السفن، والهواء يحمل ويحرك، والسحاب يمطر، والشمس تضيء، والشجر ينبت ويثمر، ولكن كل هذا بفعل الله وأمره وحده ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنهُ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآيٰتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ (الجاثية:١٣)، ألا فهل من متأمل ومتدبر ومتفكر؟

١٧ - مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ

ما غرك؟... عبارة استجواب وتأنيب واستنكار تقال لكل مغرَّر به قد ارتكب فعلًا مخالفًا للقانون أو الفطرة، ومعناها: ما دهاك؟ ما الذي غيَّر عقلك؟! ما الذي خدعك؟! ما الذي دفعك لفعلك الأحمق؟!....

ويزداد هذا الاستنكار قوةً حين يكون الجرم حماقة لا يرتكبها عاقل، فيستطرد القاضي بذكر فضائل من ارتكب الجرم بحقه، وحين تكون في حق من شهدت الفطرة بحقه كأن يقوم ولد بنكران فضل أمه وأبيه ثم يشرع في الإساءة إليهما يكون الاستنكار أشد وأكبر، لذا يقال تقريعًا لمن كفر وأشرك بربه يوم الفصل: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾(الانفطار:٦) الذي غمرك بفضائله؟ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(الانفطار:٧-٨)، فمرتكب جريمة الكفر مغرر به، إما نصرةً لأفكار الإلحاد وإما نشرًا لفساد، فكل غارق في الشهوات والملذات والمعاصي يود أن لو كان الآخر على شاكلته.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾(الأنعام:١٢١).

غروهم وخدعوهم حتى جروهم للإلحاد برغم الآيات والدلائل العظام على وجود الله، فهم ينكرون ذلك، ويعزون خلق الكون للصدفة والانفجار الذي لا يعرفون من فجَّره أو أحدثه أو خلق مادته إن كان الكون قد بدأ بانفجار كما يزعمون!... ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَٰتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٧). يصدفون: أي يصدون الناس عن التأمل في الآيات والعلامات الهادية والتسليم لقدرة الله المطلقة، فيدعون الناس للإلحاد ويعزون الخلق للصدفة.

ولأن الجريمة هي نكران الخالق؛ جاء التقريع موافقًا للجرم ﴿يَٰأَيُّهَا الْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار: ٦-٧) ما الذي دهاك وأشقاك وغرر بك أن ترتكب حماقة نكران من أوجدك من العدم وركب هيكلك وعدل قامتك؟! أنَّى لك هذا الغرور وأنت موقن بأن كل ما حولك من مقتنيات حياتك لا بد لها من صانعٍ مركِّبٍ! هل تلك المقتنيات أرقى منك وأكثر أصالةً منك إذ تنتمي إلى موجد لها وأنت تعزو نفسك إلى العدم حين تنكر من خلقك وأوجدك؟! هل تعلم أن أباك وأمك وجدَّك وما علا قد خُلقوا بنفس الطريقة التي خُلقت بها؟ فقد خُلقوا في أرحام لا يعرفون كيف خُلقت وكيف خُلقوا فيها، فلا الأم تملك من أمر حملها وولادتها شيئًا، ولا الأب يملك من أمر نطفة قد خرجت منه شيئًا، فليس هو صانعها وخالقها، إنما هو أداة قد جُهز ورُكب ليكون هو ومن

سبقوه مستودعات قد تناقلت في أصلابهم النطف المحملة بالذراري التي يستقر منها في أرحام الأمهات ما كُتب لها أن تخرج للحياة في وقتها، حتى جاء دورك، لتتواصل رحلة الذراري في الأصلاب حاملة معها لتخرج الأجيال جيلًا بعد جيل كلٌّ في موعده، قد علم الله أعدادهم وأعراقهم وأجناسهم وساعة خروجهم إلى الدنيا وساعة عودتهم إلى خالقهم وساعة بعثهم وحسابهم ﴿وَإِنَّا لَنَحنُ نُحيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحنُ الوٰرِثونَ ۝ وَلَقَد عَلِمنَا المُستَقدِمِينَ مِنكُم وَلَقَد عَلِمنَا المُستَأخِرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحشُرُهُم إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(الحجر:٢٣-٢٥). فما غرك وما دهاك وأنت المكرم الذي تحمل العقل المتأمل؟! أما حدثتك نفسك يومًا بأن هذا العقل الذي تحمله سيكون حجة الله عليك إذ ميزك به عن سائر المخلوقات وكرمك بقدرات عقلك التي يعلمها ربك الذي سيسألك عن شطحات تفكيرك وإنكارك وجحودك لما استيقنت به نفسك؟! ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاستَيقَنَتهَا أَنفُسُهُم ظُلمًا وَعُلُوًّا فَانظُر كَيفَ كَانَ عٰقِبَةُ المُفسِدِينَ﴾(النمل:١٤).

أما أدركت أنك خُلقت من عدم وتكونت بأمر ربك وعنايته وترعرعت وكبرت، حتى إذا بلغت أوج قوتك أخذت قواك تتراجع فوجدت نفسك غير قادر على وقف ذلك التراجع، فلا تملك وقف ظهور تجاعيد بشرتك ولا بياض شعرك ولا ضعف سمعك وبصرك حتى يصل بك الأمر إلى أجلك المحتوم؟! فهلَّا أدركت من أنت بعد!

الخلاصة:

أما آن لك أن تَتَّقِي الله وترحم نفسك من غرور نكران الله وتجنبها موقف التقريع الذي لن تجد له جوابًا: ﴿يٰأَيُّهَا الإِنسٰنُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَريمِ﴾(الانفطار:٦) أما آن لك أن تهتدي إلى الله؟ هل لديك إجابة تحضرها لذلك الموقف، أم أنها أماني الاسترسال في الكبرياء وفتنة الحياة وتغرير الشيطان ودعاة الالحاد الذين لا يملكون أمر موتهم ولا حياتهم، فإذا بعثهم الله كانوا ضعفاء يتبرأون مِن مَن تبعهم يقول -جل في علاه- ﴿إِذ تَبَرَّأَ الَّذينَ اتُّبِعوا مِنَ الَّذينَ اتَّبَعوا وَرَأَوُا العَذابَ وَتَقَطَّعَت بِهِمُ الأَسبابُ﴾(البقرة:١٦٦) ويقول عز من قائل محذرا من غرور الكفر

﴿يُنادونَهُم أَلَم نَكُن مَعَكُم قالوا بَلىٰ وَلٰكِنَّكُم فَتَنتُم أَنفُسَكُم وَتَرَبَّصتُم وَارتَبتُم وَغَرَّتكُمُ الأَمانِيُّ حَتّىٰ جاءَ أَمرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الغَرورُ﴾(الحديد:١٤)

فراجع نفسك من فتنة الغرور بما سوى الله فما هي إلا فترة عمر محدود ثم ترجع إليه

﴿أَفَحَسِبتُم أَنَّما خَلَقنٰكُم عَبَثًا وَأَنَّكُم إِلَينا لا تُرجَعونَ﴾(المؤمنون: ١١٥)

١٨ - لوحات الكون

كثيرًا ما تشد أبصارنا تلك اللوحات الجميلة التي يبدعها الفنانون خاصة تلك التي تحاكي الواقع في دقة ألوانها وأبعادها وظلالها وزواياها، فيُخيل للناظر أنها لقطة فوتوغرافية وقد أضفى عليها الرسام خيوط الضوء الأخاذة. فكم هي جميلة تلك اللوحات التي تحاكي جمال الطبيعة الربانية! والغريب في الأمر أننا قد نقف في نفس المكان الذي رسمه ذلك الفنان فلا نستشعر فيه جمال اللوحة، رغم أن جمال المكان كان مصدر إلهام ذلك الفنان فحاكاه بريشته! الفرق أن ذلك الرسام لديه حس فني قد شدته عناصر المنظر فطُبعت في خياله ليحولها إلى لوحة يبرزها لنا، وهذا يعني أننا لا نرى الشيء جميلًا أحيانًا إلا إذا أقنعنا الآخرون بجماله، وفي الحقيقة أن الكون كله لوحة جمال متناسقة، تحمل تفاصيل نحن عنها غافلون لا نلتفت إليها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

الجبال والتلال والسهول والهضاب والوديان والرمال والأحجار.

الأمطار والبطاح والسيول والوديان والأنهار والعيون.

البحار والأمواج والشواطئ.

السماء والسحب بجمالها وأشكالها، والشمس والقمر والكواكب والنجوم والفضاء.

النهار وحركته وضياؤه وشمسه.

الليل وسكونه وقمره ونجومه وكواكبه.

الحيوانات بأشكالها، والطيور بخفتها وجمالها وتناسق ألوانها، والأسماك بأنواعها وزعانفها وقشورها وأحجامها.

الحشرات بتصاميمها ورشاقة خصرها وألوان فراشها.

الأشجار بقوامها وظلالها وتصاميم أوراقها وجمالها وطيب ثمارها، الزهور بألوانها وريحها!!

كل تلك المعطيات الأخاذة لا نلتفت إليها في الغالب بسبب أننا اعتدنا على رؤيتها؛ فلا نعيرها إجلالًا وتفكرًا وتقديرًا، لذلك فالمولى -عز وجل- عاتب من بثهم على الأرض وزودهم بعقل لم يستخدموه بالتفكر في عظيم خلقه؛ عاتبهم حين وجد منهم صدودًا وغفلة، فقال عز من قائل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَت ۝ وَإِلَى السَّماءِ كَيفَ رُفِعَت ۝ وَإِلَى الجِبالِ كَيفَ نُصِبَت ۝ وَإِلَى الأَرضِ كَيفَ سُطِحَت ۝ فَذَكِّر إِنَّما أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَستَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ﴾ (الغاشية:١٧ - ٢٢) ألم تلفت أنظارهم تلك الجمال التي تتحمل أقسى ظروف الطقس، كيف تسير بأمتعتهم في الصحراء الحارقة بأخفافها وأسنمتها وقوة تحملها؟! ألم تشد أنظارهم تلك السماء العالية بشمسها الساطعة وسحبها الماطرة التي تجود عليهم بماء مبارك يشعرهم

بالفرحة والنشوة؟! ألم يلتفتوا إلى تلك الجبال الشامخة العالية الراسخة المنتصبة بأحجامها الضخمة؟! ألم تحرك مشاعرهم وأحاسيسهم مسطحات الأرض الفسيحة؟! ألم يتفكروا كيف ذُللت ومُهدت لهم حتى صارت كالبساط؟ أما آن لسكان القرن الحادي والعشرين أن يدركوا نعمة بسط الأرض وتمهيدها بعد أن نقلت لهم كاميرات المحطات والمسابر الفضائية، وعورة الكواكب الأخرى ومدى قسوة تضاريسها؟! أما تتحرك مشاعر البشر وتسبح بحمد الخالق حين ترى تلك السحب تظللهم وتحمل لهم الخير والرحمة والبهجة التي ينتظرونها فتروي ظمأهم وتكسو أرضهم لونًا أخضر مزهرًا أخاذًا؟! ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٤٨-٥٠). ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(فاطر: ٢٧).

ألم تحرك مشاعرهم يومًا تلك الزهور الفواحة الفتانة الخلابة، وتلك الثمار اليانعة التي تشد المتأمل بكل جواذبها ومفاتنها؟! شكلها وريحها وتناسقها وطعم مذاقها المختلف متشابهًا وغير متشابه، أليس في ذلك آيات تذكرهم بمن سواها وأبدعها؟!.. ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(النحل:١٣) لقوم يذكَّرون.. يذَّكَّرون الخالق، فلا يمرون مرور الغافل، يذَّكَّرون المنعم فلا يمرون مرور الجاحد، يذَّكَّرون المبدع فلا يمرون مرور العوام.. أين الأحاسيس أين المشاعر؟!

ويزداد عتب المولى على عقول خلقها لتتدبر في عظيم خلقه وهي تعمي أبصارها معرضة عن جمال ما خلق لها، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءاذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾(الحج:٤٦).

﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعد:٣).

آيات لأولي العقول والألباب والسمع والأبصار والأفئدة.. عجبًا كيف لا تؤثر كل تلك المعطيات على عقل الإنسان فتجذبه للتفكر فيها؟! هل العيب في العقل أم في مستخدم العقل؟! عجبًا لعقول ساهية غافلة تغرق في الحياة ماضية كمضي سائر المخلوقات غير المسؤولة، لا تقدر حجم هذا الإبداع، فهي أقرب في مثلها كقطيع دخل حديقة زهور منسقة فمضى فيها عابثًا يأكل ورقها ويحطم زهورها، لا تعنيه روائحها ولا تناسقها ولا ورودها، بل تدوسها حوافره وتقتلع جذورها أسنانه ويملأها روثًا وحطامًا! عجبًا لعقول البشر كم هي غافلة عن لوحات الكون المبهرة!!

١٩ - الأمان في اختلاف الخلقة والحياة في اختلاف الطباع

لكل مخلوق بصمته وشخصيته، وإن تشابهت الأقران فلا بد من وجود فوارق، ما السر في اختلاف الهيئات والأشكال في جميع المخلوقات؟ لله في ذلك حكم كثيرة، فباختلاف الأشكال يرتجى الأمان، وباختلاف الطباع والأمزجة تتفاعل الحياة.

تخيل حجم إجرام البشر لو أن الله خلقهم على هيئة وصورة واحدة ونبرة صوت واحدة -وهذا أسهل على الخالق والصانع -تجلى في قدرته- فسبحان الحكيم كيف ميز كلًّا بشخصيته، حتى الحيوانات والأشجار وكل شيء.. سبحان البارئ! ﴿وَمِنْ ءايٰتِهِ خَلقُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ وَاختِلٰفُ أَلسِنَتِكُم وَأَلوٰنِكُم إِنَّ فى ذٰلِكَ لَآيٰتٍ لِلعٰلِمينَ﴾(الروم:٢٢). ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخرَجنا بِهِ ثَمَرٰتٍ مُختَلِفًا أَلوٰنُها وَمِنَ الجِبالِ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمرٌ مُختَلِفٌ أَلوٰنُها وَغَرابيبُ سودٌ ۝ وَمِنَ النّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنعٰمِ مُختَلِفٌ أَلوٰنُهُ كَذٰلِكَ إِنَّما يَخشَى اللَّهَ مِن عِبادِهِ العُلَمٰؤُاْ إِنَّ اللَّهَ عَزيزٌ غَفورٌ﴾(فاطر: ٢٧ - ٢٨).

لو تشابهت صور البشر لصعب التمييز والتفريق، فيسهل التستر

ورمي الشبيه بالجريمة، كذلك يسهل اللبس والتخفي والنكران؛ حيث إن نفوس البشر قد جُبلت على ذلك. ﴿وَنَفسٍ وَما سَوّىٰها ۝ فَأَلهَمَها فُجورَها وَتَقوىٰها﴾(الشمس:٧ - ٨). فالبطش والتعدي متعة حياتهم.

﴿فَلَمّا أَنجىٰهُم إِذا هُم يَبغونَ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ يٰأَيُّهَا النّاسُ إِنَّما بَغيُكُم عَلىٰ أَنفُسِكُم مَتٰعَ الحَيوٰةِ الدُّنيا ثُمَّ إِلَينا مَرجِعُكُم فَنُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَ﴾(يونس:٢٣) ؛ لذلك سن لهم قوانين الضبط والربط في هذه الحياة وفرض العقوبة، وتسهيلًا لضبطهم وإلزام كلٍّ بمسؤوليته؛ قضت حكمته أن لا يخلق بشرين متشابهين على وجه الأرض، وإن ندر التشابه بينهم في التوائم لحكمة أيضًا منها إظهار قدرته، إلا أنه ميز كلًّا من التوأمين في بصمة اليد والعين والصوت والطبع، إلى ميزات أخرى يعرفها المختصون، كما قضت حكمته أن جعلهم فصائل ليتم الاستدلال العام عليهم، فيقال حبشي أو رومي، فيُعرف هذا من شرق آسيا، وذاك من أفريقيا، وآخر من أوروبا، من خلال ميزات عامة منها اللون وطبعة الوجه العامة، ثم تأتي تفاصيل أخرى تميز أشكال سكان الأقاليم، كالأحجام وتشكيلة الوجه، فتميز الصيني والكوري والفلبيني عن الهندي والباكستاني والبنجالي وكلهم أبناء قارة. ثم تأتي تفاصيل أكثر دقة فتميز أبناء الإقليم الواحد، فتعرف الكوري من الياباني من الصيني بفوارق عامة بسيطة، كميلان شق العين، أو حجم أو استقامة الأنف، أو شطحة الوجه، ثم تدخل في تفاصيل أدق، فيُعرف أبناء القبائل، إما من لهجة أو قاسم خلقي مشترك كدرجة اللون

ثم تدخل في فوارق أدق فتُفصل العوائل عن بعضها، فيجتمع فيهم أكثر من قاسم مشترك، كنوع الشعر مع كثافة الحاجب أو حجم العين أو طفوها أو غورها، فتظهر ملامح مشتركة بينهم، ثم تأتي تفاصيل أكثر، فتقول إن هذا ابن فلان من غير أن تعرفه مسبقًا من خلال تشابه يظهر للعيان.. فسبحان الذي خلق الأنفس وركبها في صور أجساد مختلفة!

﴿الَّذي خَلَقَكَ فَسَوّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فى أَيِّ صورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٧- ٨).

إذن حكمة التعقب وتمكين الأحكام في الدنيا اقتضت كل تلك المعطيات والتمايز والاختلاف في تركيب خلقة البشر وصنعتهم في الدنيا، وهناك لا شك غايات أخرى اقتضتها حكمة الخالق في مخلوقاته، فليس البشر وحدهم على هيئات مختلفة، بل حتى المخلوقات الأخرى، حتى البهائم جعل الله – تبارك وتعالى- لها أشكالًا مختلفة فقد فصَّل في الأنعام وغيرها، فجعلها فصائل وأزواجًا: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، وفي كل فئة جعل سلالات، فتُعرف وتُميز بإقليمها بمجرد النظر إليها كالنجدية، والباكستانية، والصومالية، والمحلية، والأعجب من ذلك قل أن تجد رأسين متشابهين في نفس الفصيل رغم كثرة عددها فتجد أن هناك تباينًا وتمايزًا في ألوانها والبقع التي فيها، وإذا كانت بلون واحد فلن تجد وجهين متشابهين، ما عليك إلا أن تمعن النظر فقط، وكلُّ ذلك التباين إنما هو معجزة الخالق ليسهل معرفة الحلال، وحتى لا تختلط الملكيات، وحتى

تُحدد مسؤوليات الخراب إن حصلت فتُعرف تلك السائبة أو تلك الخاربة من شكلها فيُعرف مالكها... سبحان الحكيم!

أما اختلاف الطباع والمزاج لدى المخلوقات، فالحكمة الظاهرة منه دفع الناس بعضهم ببعض ودفع وتيرة الحياة، فالكسول يحتاج من يخدمه، والنشيط لديه طاقة الخدمة، والصبور والمثابر يتقدم ويحقق إنجازًا، والمستعجل يهدر فرصًا ويتأخر، فطبائع البشر وأمزجتهم هي التي تحدد طبقاتهم ومستوياتهم، وتسخّر بعضهم لخدمة بعض. ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١). ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾(الزخرف:٣٢).

الخلاصة.. إن حكمة الله اقتضت أن تكون مخلوقاته على هيئات مختلفة في الدنيا ليسهل على القائمين بالنظام الضبط وتحقيق العدل ما أمكن بينهم، وكذلك جعل اختلاف الطباع والأمزجة والرغبات داعيًا وسببًا لاستخدام بعضهم البعض من أجل دفع عجلة الحياة. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾(المؤمنون:١٤)

٢٠ - مخلوقات الجنة

كيف هي مخلوقات الجنة، تلك الدار التي خلت من الحر والبرد والسموم والزمهرير والغبار والرطوبة والجفاف والآفات والأمراض، خلت من كل ما يستوجب الوقاية مما نعرفه من منغصات الدنيا؟! ترى ما هي مواصفات نشأة البشر وخلقتهم هناك؟! فإن كانت النشأة الأولى من أجل حياة قصيرة قد صُممت للكد والتحمل والإعمار والابتلاء، فإن النشأة الأخرى ستكون من أجل الخلود والنعيم المقيم، وإن كانت الأولى قد أُعدت لمناخ الأرض المتقلب، فكيف ستكون نشأة من خُلق ليعيش في مناخ المتعة والاسترخاء والاستجمام في جنة خالية من الأسقام والشمس والحر والبرد؟!

لنلقِ نظرة خيال على تركيبة بشر قد خلقهم الله هناك للتنعم والتلذذ، لا شك أن حواسهم ستكون أرقى من حواس أهل الأرض، لا شك أن من خلقه الله خلقة إنشاء جديد ليكرمه ويجعله خالدًا سيكون مختلفًا عن هذا الذي خلقه في بطن أنثى ليخرجه إلى وجه الأرض لعمر قصير يبتليه ويختبره... ترى هل نحتاج هناك إلى دموع ترطب العين؟! هل سترمش أجفاننا لتجري عملية الترطيب، هل سيكون هناك عرق لترطيب

الجسم ذلك الذي يحفظ درجة الحرارة الجسم حين يتعرض إلى حرارة على وجه الأرض؟! هل تتطاول شعور أهل الجنة وأظافرهم كما تتطاول شعور أهل الأرض وأظافرهم كي تتجدد؟!

فإن اقتضت خلقتنا في الأرض التمايز والتباين والاختلاف لحفظ الخصوصيات والحد من التلابس والجرائم، فإن حكمة الآخرة تقتضي الجمال والتمتع وعدم وجود القصاص وتطبيق أحكام الفصل والخلاف، إذا لا جرائم ولا تعدي وكل في مملكته راض فرحا مسرورا بما وهبه الله، كيف سيكون سكان الجنة؟! كيف ستكون خلقة باقي المخلوقات فيها والتي جُعلت للجمال والتشويق؟! كيف سيُخلق البشر في جنة ليس فيها أمراض، كيف ستكون جلودهم هناك؟ فإن كانت في الدنيا قد جعلت من أجل أن تقيهم حر الشمس أو شدة البرد ومقاومة ميكروبات وآفات الدنيا ومع ذلك قد جعل الله بعضها فاتنة مبهرة غاية في الصفاء والنقاء، ترى كيف ستكون بشرتهم في الجنة حيث لا شمس هناك ولا زمهرير، ولا أمراض يتقونها؟! كيف ستكون الأشجار والثمار في جنة ليس فيها آفات؟! هل ستكون الثمار بقشور تحميها كثمار الأرض؟! هل سنحتاج لمضغها أم أنها تذوب عذبًا بمجرد وضعها في الفم؟! هل سنحتاج إلى عناء تحصيلها وقطفها وغسلها أم أنها تأتي بمجرد التمني؟! هل سنحتاج إلى بذل مجهود وتحريك عضلات أرجلنا إذا أردنا أن نتنقل في جنة لا نعلم درجة جاذبية تربتها ولا حتى درجة مقاومة هوائها، أم نجد أنفسنا نحلق كيفما شئنا؟! يا

ترى هل ستكون لنا عينان أم أكثر؟! فقد اقتضت حكمة المولى أن تكون لنا عينان في مقدمة الرأس في الدنيا لحِكم يعلمها الله، وحتى لا نطغى فتُحفظ حدود وحرمة خصوصية الآخرين فجعلت قدراتنا محدودة، ترى كيف سيكون بصرنا هناك؟! كيف ستكون حاسة الشم تلك الحاسة التي حُددت لنا في الدنيا كى لا نشم الروائح القذرة من بعيد، وسرعان ما نكسب فيها مناعة الشم، فلا نشم العطر إذا تم تكراره بنفس درجة الشم الأولى وذلك كي لا يتكرر شم الروائح الكريهة في الدنيا؟! كيف سنشم روائح الجنة التي ليس فيها إلا الطيب؟! هل سيكون الشم دون مناعة؟! هل ستحتاج أشجارها إلى ماء وإلى ضوء وإلى تربة وأسمدة؟! هل تتكاثر أشجارها؟! هل تتساقط أوراقها باختلاف الفصول أم أنه لا توجد فصول، أم أنها غُرست واكتمل نموها واتسق تركيبها لتعطي ثمرًا دائمًا، يصفها المولى- جل وعلا- بأنها ذات ظلال دانية، وثمار مذللة قريبة؟! ﴿وَدانِيَةً عَلَيهِم ظِلٰلُها وَذُلِّلَت قُطوفُها تَذليلًا﴾ (الإنسان:١٤) وقد تكون أشجار الجنة معمرة كما يعمر الإنسان هناك، هل سيكون طعم لحمها كطعم لحم الدنيا

الخلاصة.. لا شك أن حديثنا هو ضرب من التخمين، فما عند الله خير وأبقى ولا يعلم ذلك إلا الله، ولكن المولى -جلت قدرته- قد وعد بتحقيق أماني أصحاب أهل الجنة، فقال عز من قائل: ﴿لَهُم ما يَشاءُونَ فيها وَلَدَينا مَزيدٌ﴾ (ق: ٣٥). أسأل المولى برحمته أن يجعلني والقارئ الكريم

من أصحابها، فهو الجواد الكريم العفو الغفور الحليم.. ولعل نظرة على الموضوع التالي تحلق بنا في تلك الأجواء التي نسأل الله أن نكون من أصحابها، وأن يرزقنا التوفيق للعمل الذي يرضى به عنا فيدخلنا الجنة برحمته.

٢١ - بعض ملامح الحياة التي أريدها

إذا تمنى المرءُ حياةً بفكر الدنيا فلا شك أن غاية مناه التخلص من كل منغص للعيش قد مر به أو بغيره خلال فترة حياته، وإن كانت هذه الأماني من مسلمات الحياة الأخرى فلا ضير أن نستشرف آمالًا قد نراها اليوم غاية المنى، ثم إذا رجعنا إلى ربنا ورأينا ما لم يكن يخطر على قلب بشر كانت لنا هذه الأماني من الذكريات الطريفة. فأول ما يخطر على قلب بشر قد أتى من الدنيا هو زوال ما كان ينغصه فيقول متمنيًا: أريد حياة لا موت فيها ولا مرض ولا وهن ولا شقاء، لا حوادث مؤلمة على الإطلاق، أريد قامة جميلة متسقة، أريد شعرًا جميلًا براقًا لا يذبل ولا يشيب ولا يطول ولا يقصر ولا يحتاج إلى مشط وحلاقة.. أريد وجهًا وضاءً غايةً في الجمال، أريد صوتًا جميلًا إذا ترنم يشجي الأسماع ويطربني، أريد حاسة سمع تمكنني من سماع جميع الأصوات البعيدة والقريبة بوضوح، لا أريد سماع خبر مزعج على الإطلاق، بل أريد أن أسمع كل يوم بشارة وخبرًا مفرحًا، أريد حاسة شم مقصورة على الروائح الجميلة فقط ونسمات الزهور، ولا أريد أن أكتسب مناعة شم من أي فواح أو

شذى، أريد بصرًا حادًّا غير البصر المعتاد، أريد أن أرى الشيء من جميع الاتجاهات وليس من الجهة المعتادة المقابلة فقط، أريد أن أمتلك سرعة خارقة تمكنني من الوصل إلى وجهتي محلقًا بلمح البصر، أريد استخدام المشي للتنقلات القصيرة، أريد حديقة بل بستانًا بل واحة من الفواكه التي تسعد النفس وتبهج الخاطر عند تذوقها، أريد أشجارًا لا تتساقط أوراقها ولاتذبل أزهارها، لا أريد حتى ذرة غبار، أريد أن آكل ما أشتهيه دون حاجة إلى غسله، لا أريد الثمار أن تكون بعيدة عن متناول يدي أو قل متناول فمي، لا أريد أن أجوع ولا أريد شبعًا يصرفني عن التمتع بلذة الطعام، أريد أصحابًا وأصدقاء أشتاق إليهم ويشتاقون إليَّ، كم أتمنى أن ألتقي بأولئك الأبطال والرجال الذين تحدثت عنهم الكتب والسير! كم أشتاق لرؤية الأنبياء والصالحين أتعرف عليهم ويعرفونني! كم أتمنى رؤية مشاهد الأحداث التي جرت على مر التاريخ على حقيقتها! لا أريد هاتفًا على الإطلاق، لا أريد واتساب ولا أي برامج تشغلني عن التلذذ بمتعة الحياة... لا أريد نومًا يحرمني التمتع بالنعيم، كم أشتاق أن يكون الجو لطيفًا لا شمس فيه ولا حر ولا برد! أريد أن أرى ألوان الأفق غير التي اعتدت عليها، أريد أن أشتري ما أريد فيُحمل عني ويُدفع عني فأنصرف دون أن أقف عند محاسب، ليس هذا كل شيء فحسب، إنما هذه خواطر عبد قاصر عن إدراك سعة رحمة الله وكرم

نُزله وضيافته وما أعد لعباده برحمته، فمهما تمنوا وطلبوا فلن يبلغوا ما أعده الكريم لهم ﴿لَهُم ما يَشاءونَ فيها وَلَدَينا مَزيدٌ﴾(ق:٣٥)، ﴿لَهُم فيها فٰكِهَةٌ وَلَهُم ما يَدَّعونَ﴾(يس:٥٧) ﴿فَلا تَعلَمُ نَفسٌ ما أُخفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعيُنٍ جَزاءً بِما كانوا يَعمَلونَ﴾(السجدة:١٧) ورد في حديث قدسي عن أبي هريرة: قالَ اللهُ: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ[١].

الخلاصة... من حق كل عبد أن يرجو الله ويحسن ظنه بالله والله عند حسن ظن عبده لأنه رحيم عفو كريم، ولكن يبقى السؤال الأهم في الموضوع: ماذا أعددت لها؟

روى أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رجُلًا قال: يا نبيَّ اللهِ متى السّاعةُ؟ قال: (أما إنّها قائمةٌ فما أعدَدْتَ لها؟) قال: ما أعدَدْتُ لها كثيرَ عملٍ إلّا أنّي أُحِبُّ اللهَ ورسولَه قال رسولُ اللهِ ﷺ (فإنّك مع مَن أحبَبْتَ ولك ما احتسَبْتَ).[٢]

---

١. البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٤٩٨ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٤٩٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤)

٢. ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٥٦٤ • أخرجه في صحيحه

٢٢ - كلا والقمر

دعوة قرآنية للتأمل في عظيم خلق الله وفي آيات ملكوته.. هذه الآية من سورة المدثر، تدعو المتأملين للوقوف إلى ثلاثة مناظر هي من أجمل مناظر كوكب الأرض تتكرر كل يوم، ولكنها تتجلى بجمالها في تلك الساعة التي حددتها هذه الآية العظيمة في القرآن وهي ساعة الشروق أيام الليالي البيض إذ يتجلى فيها جمال القمر شروقًا وغروبًا حيث هي ليالي كماله فيكون فيها بدرًا مكتملًا .. فعند شروقه يخطف الألباب بضوئه الهادي الذي ينير الفضاء ويسكب على الأرض إضاءة بيضاء هادئة لطيفة تتناسب مع سكون الليل وهدوئه ولطفه، وتتجلى درجة جمال التأثير في الأماكن البعيدة عن التلوث الضوئي الذي أحدثه الإنسان؛ إذ استمتعت البشرية بسحر القمر وجمال ضوئه منذ خلقه الله حتى القرن العشرين بعد اكتشاف الكهرباء! ولعل سكان الدول ذات المسطحات الخضراء هم أوفر حظًّا اليوم للتمتع بجمال القمر، حيث الأجواء الصافية من الغبار والليل الساكن حيث الإنارة الصفراء الخافتة جدًّا والشوارع المظلمة عدا بعض المدن.

أما عند غروبه فتتجلى عظمة الخالق بإظهار تفاصيل القمر بمظهر يختلف عن مظهر إشراقه.. ففي الإشراق تكون قوة إضاءته أعلى، فلا يتمكن الناظر من رؤية تفاصيله، أما ساعة غروبه فهي تلك الساعة التي أقسم الله بها وهي ساعة ذهاب الليل وقدوم النهار، ﴿كَلّا وَالقَمَرِ ۝ وَاللَّيلِ إِذ أَدبَرَ ۝ وَالصُّبحِ إِذا أَسفَرَ﴾(المدثر:٣٢ - ٣٤).. حيث يكون القمر متلألئًا في جهة الغرب وقد كسر إقبال الصبح من جهة الشرق حدة ضوئه، فتجلت تقاسيم سطحه واستدارته بصورة أوضح من ساعة شروقه.. فسبحان من فسح المجال لتأمله وأرشد البشر إلى ذلك لعلهم يدركون عظمة آية القمر، فيلتفتوا إلى تلك المعجزة الربانية فوق رؤوسهم شاهدة بوحدانية خالق الكون، إذ جعل ذلك إعجاز قدره بدقة ثم هدى الناس ووجههم أن يتفكروا ويلتفتوا الى كثير من آياته العظيمة التي هم عنها غافلون ومنها القمر إشراقا وغروبًا ومنازل! ﴿وَالقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنازِلَ حَتّىٰ عادَ كَالعُرجونِ القَديمِ﴾(يس:٣٩) ﴿هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذٰلِكَ إِلّا بِالحَقِّ يُفَصِّلُ الآيٰتِ لِقَومٍ يَعلَمونَ﴾(يونس:٥)..

٢٣ - وما أدراك ما العقبة!

قراءة فاحصة في سورة البلد تبين لك أن ثمة عقبة تحول دون وصول المؤمن لدرجة أهل الميمنة، قد يصعب على كثير من العباد اجتيازها نتيجة تعلقهم ببعض القيود المانعة، ولعل العقبة الكبرى التي أشارت إليها السورة هي عقبة البخل التي جعلت من العابد الناسك عبدًا ذليلًا مقيدًا، ليس لله ولكن لمال يذله ويخذله! فيقضي عمره حارسًا له يسعى بكل ما أوتي من وقت وصحة من أجل إكثاره وتنميته، فإن كان في جمع المال وتنميته قوة مطلوبة تجعل المؤمن عزيزًا قويًّا، فإن في البخل به مهانة وذلة وانكسارًا، لذلك فهو في كبد قد ذكره الله وأقسم عليه في سورة البلد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (البلد: ١-٧).

إذن فالإنسان يعيش كبد المعاناة مع نفس جُبلت على حرص وبخل يمنعه من الكرم والعطاء.

لهذا السبب فإن سورة البلد توضح أن رقاب كثير من العباد مقيدة وليست حرة، والله يدعو الناس لتحريرها باقتحام هذه العقبة الكبرى،

وقد بينها جل في علاه في ذات السورة: ﴿فَلَا اقتَحَمَ العَقَبَةَ ۝ وَما أَدرىٰكَ مَا العَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾(البلد:١١-١٣). فالعقبة الكبرى التي يدعونا المولى لاقتحامها وتجاوزها والتحرر منها هي عقبة البخل والشح. فلا يتم ذلك إلا بالتقديم والتضحية والبرهان، وهو إخراجٌ من ذلك المال عن طيب نفس ما يعتق به رقبة. فأعظم الإنفاق هو تحرير نفس من رِقها وتخليصها من الذل الذي لازمها. وما أكثر الرقاب التي تنتظر من يفكها ويحررها من رق أسيادها. أولئك الذين ملكوها بقروض وتمويل ربوي تعاظم وزاد فأثقل كاهلها فأودعوها غياهب السجون! فهم أشد رقًّا من رق العبد المملوك لسيده الذي ربما تركه طليقًا يخدمه. أما رقاب اليوم فرِقها شديد مغلظ. فكم من أسرة تنتظر من يفك رقبة معيلها من أروقة السجون ليعيد إليهم حياة كريمة يتطلعون إليها في ظله وكنفه! وحيث إن فك الرقاب وإخراجها من أروقة المحاكم والسجون وذل الديون يحتاج إلى دفع وبذل كبير للمال من المتبرع. فقد جعل ذلك البذل هو اقتحام عقبة وتجاوز مرحلة تنقل المتبرع من كبد المعاناة وذل عبوديته للمال إلى مصاف الكرماء أصحاب الميمنة. وإن كنت لا تملك ما يحرر رقبة من رقها فاشترك مع غيرك وكن مبادرًا في ذلك. وإن وجدت في نفسك مانعًا وتحفظًا فاعلم هنا أن رقبتك هي المقيدة بقيد البخل. ولكسر ذلك القيد دعاك الله إلى ما هو أسهل من فك رقبة إن كنت لا تملك الاستطاعة على ذلك. فدعاك لبذل المال من إجل الإطعام ﴿أَو إِطعَٰمٌ فِى يَومٍ ذِى مَسغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقرَبَةٍ ۝ أَو مِسكِينًا ذَا مَترَبَةٍ﴾(البلد:١٤-١٦).

فبعد فك الرقاب المرهونة يأتي البذل والعطاء في إطعام الأيتام والمساكين والمحتاجين شرطًا لنيل درجة أصحاب الميمنة، خاصة في أيام النوازل والضيق والشح، أو تفريج كربة وضائقة عن عبد محتاج، تلك الدرجة أو المنزلة التي قد لا ينالها كثير من العابدين الزاهدين الذين قَصَروا عبادة ربهم على الذكر والاستغفار والصلاة والصيام والحج، ولكنهم أهملوا فرض الزكاة وكفوا أيديهم عن الصدقة والبذل والعطاء في سبيل الله، فهم ما زالوا خلف العقبة لم يقتحموها، تلك العقبة التي تحتاج إلى قفزة قوية تدفعها قوة العطاء لا غيره، فبعد اجتيازها يكون العبد قد وصل إلى درجة الأبرار فيكون من أصحاب الميمنة الذين ذكرهم المولى في السورة فيكون منهم، لأنه أصبح من الأبرار الذين قال عنهم جل في علاه: ﴿إِنَّ الأَبرارَلَفي نَعيمٍ﴾(الانفطار:١٣)، ولما كانت النعيم هي الجنة فإن البر هو مفتاحها الذي لا يمكن امتلاكه إلا بالنفقة لقوله تعالى: ﴿لَن تَنالُوا البِرَّ حَتّىٰ تُنفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ وَما تُنفِقوا مِن شَيءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَليمٌ﴾(آل عمران:٩٢). قال المفسرون: إن البر هي الجنة لَنْ تَنَالُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ جَنَّة رَبّكُمْ, حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ, يَقُول: حَتَّى تَتَصَدَّقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَتَهْوُونَ أَنْ يَكُون لَكُمْ مِنْ نَفِيس أَمْوَالكُمْ.[١]

الصلاة والصيام والحج والصوم إنما هي أركان يقوم عليها الإسلام، ولا تقبل الأعمال بدونها، فمن قصر فيها وأهملها فقد خسر، ومن أقامها

١. الجامع لأحكام القرآن "القرطبي" سورة آل عمران ٩٢

وحافظ عليها فقد أفلح فلا يكون المرء مسلمًا إلا بها ولا يقبل العطاء والصدقة والجهاد إلا من مؤمن مؤدٍّ محافظ على هذه الأركان العظيمة، ولكن الحفاظ عليها وحده لا يكفي لأن يرتقي بالمؤمن إلى درجة الأبرار الأتقياء، أولئك الذين قال المولى عنهم: ﴿إِنَّ الأَبرارَ لَفى نَعيمٍ ۝ عَلَى الأَرائِكِ يَنظُرونَ﴾(المطففين:٢٢، ٢٣)، فالأبرارهم أصحاب البر، والبرُّدرجة ومقامٌ لا يتحصل إلا بعمل، ويقول جل في علاه: ﴿وَتِلكَ الجَنَّةُ الَّتى أورِثتُموها بِما كُنتُم تَعمَلونَ﴾(الزخرف:٧٢). قال رسول الله ﷺ: "من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"[١] فجنة الله غالية لا تتحصل إلا بالدفع والبذل والعمل ﴿وَسارِعوا إِلىٰ مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّمٰوٰتُ وَالأَرضُ أُعِدَّت لِلمُتَّقينَ﴾(آل عمران:١٣٣). من هم المتقون؟ هم الذين أدوا شعائر الله من صلاة وصوم وحج ثم برهنوا على ذلك بأفعالهم، قال عنهم المولى: ﴿الَّذينَ يُنفِقونَ فِى السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ وَالكٰظِمينَ الغَيظَ وَالعافينَ عَنِ النّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحسِنينَ ۝ وَالَّذينَ إِذا فَعَلوا فٰحِشَةً أَو ظَلَموا أَنفُسَهُم ذَكَرُوا اللَّهَ فَاستَغفَروا لِذُنوبِهِم وَمَن يَغفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَم يُصِرّوا عَلىٰ ما فَعَلوا وَهُم يَعلَمونَ ۝ أُولٰئِكَ جَزاؤُهُم مَغفِرَةٌ مِن رَبِّهِم وَجَنّٰتٌ تَجري مِن تَحتِهَا الأَنهٰرُ خٰلِدينَ فيها وَنِعمَ أَجرُ العٰمِلينَ﴾(آل عمران:١٣٣ - ١٣٦).

١. أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وأحمد (٢١٢٤١) مختصرًا، والحاكم (٧٨٥٢) باختلاف يسير، وقال: حديث حسن.

المولى -جل في علاه- يحب العابد المنفق المعطي، والله يحب المحسنين، فأصحاب الميمنة هم أهل السخاء والبذل والعطاء وفك الكرب والرقاب المعسرة، هم الذين يوصي بعضهم بعضًا بالصبر والمثابرة على البذل والتقديم والعطاء ورحمة الناس وعونهم، فهم أصحاب الزكاة كما هم أصحاب الحج والصيام والصلاة.

﴿فَلَا اقتَحَمَ العَقَبَةَ ۝ وَما أَدرىٰكَ مَا العَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَو إِطعٰمٌ فى يَومٍ ذى مَسغَبَةٍ ۝ يَتيمًا ذا مَقرَبَةٍ ۝ أَو مِسكينًا ذا مَترَبَةٍ ۝ ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذينَ ءامَنوا وَتَواصَوا بِالصَّبرِ وَتَواصَوا بِالمَرحَمَةِ ۝ أُولٰئِكَ أَصحٰبُ المَيمَنَةِ﴾ (البلد:١١ - ١٨).

٢٤ - التيسير لليسرى والتيسير للعسرى

يعيش الإنسان في هذه الحياة مخيرًا ومسيرًا، مخيرًا له مطلق الحرية في اختيار طريق سعادته وطريق شقائه، فبعضهم يجد طريق المعاصي سهلًا ميسرًا محببًا إليه، وطريق الطاعة ليس سهلًا وغير محبب إلى نفسه؛ فتراه ينخرط في المعاصي دون حياء، في حين يصعب عليه التوبة أو حتى عمل الخير والعبادة، وقد جعل الله لذلك أسبابًا، من عمل بها يسر له الله طريق الهدايه وطريق الخير، ومن أهملها يسرله طريق الغواية وطريق الضلال، ومن كان بين بين فإنه بين الطريقين.

وقد كشف الله لنا في سورة الليل مفتاح طريق اليسر ومفتاح طريق العسر وترك لنا الخيارين، فلا شيء يأتي مصادفة، ولكنَّ لكل شيء ثمنًا.

فالجود والكرم والعطاء يفتح لصاحبه طريق اليسر فيسلكه بكل أريحية إذ يجد نفسه محبًّا للخير والبر والعبادة والصلاح دون معاناة بل يكره المعاصي ﴿فَأَمّا مَن أَعطىٰ وَاتَّقىٰ وَصَدَّقَ بِالحُسنىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسرىٰ﴾ (الليل: ٧).

أما البخيل فلا يُفتح له طريق اليسر ولا يُحبب إليه عمل البر والصلاح لأنه لم يدفع قيمة ذلك، لم يقطع تذكرة الدخول لطريق الجنة، لأنه ربما يشك أو يكذب بها فيحول إلى طريق العسر.

﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاستَغنىٰ وَكَذَّبَ بِالحُسنىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسرىٰ﴾ (الليل:١٠).

يقول أحد الحكماء: إنها آية في غاية الخطورة، لأنها تكشف لأي مدى كيف يمهد الله -عزوجل- الطريق للهاوية، ويجعله سهلاً ميسرًا.

ويقول أحدهم: لا يوجد في القرآن تعبيرٌ أشد مرارةً مِن قول الله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسرىٰ﴾ (الليل:١٠) .

عندما يتعايش المرء مع الإجرام والذنب بكل أريحية وطيب خاطر، عندما يعجبك منطقك السقيم، وتبريرك التافه، حين ترى الباطل حقًّا وتتبعه، وترى الحق باطلًا فتتجنبه، حين تستحب العمى على الهدى.. فاعلم أنك قد يُسرت للعسرى.

حين يسرق السارق فيستره الله المرة الأولى ثم لا يسترجع ولا يتوب ويستمر دون أي يُكشف أمره فقد يُسر له العسر.

حين يزني الزاني ولم يشعر بقبح فعله وعظيم ذنبه فقد يُسر للعسر.

حين يخون الخائن -أيَّ خيانة كانت- ويرى الأمر عاديًّا فقد يُسر للعسر.

حين يأكل أموال الناس بالحجج الباطلة فقد يُسر له العسر.

حين يعتاد تصفح المواقع المشبوهة فقد يُسر له العسر.

حين يسهل عليه النظر إلى الصور المحرمة فقد يُسر له العسر.

حين يستمرئ الجلوس على مقاعد الشبهات ويحسب ذلك ترويحًا وتفريجًا وكسبًا لأصدقاء، فإنما حُبب إليكه مكروه!

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سوءُ عَمَلِهِ فَرَءاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ وَيَهدى مَن يَشاءُ فَلا تَذهَب نَفسُكَ عَلَيهِم حَسَرٰتٍ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ بِما يَصنَعونَ﴾ (فاطر:٨).

الخلاصة: يجب على كل منا الوقوف مع النفس ومراجعتها في كثير من العادات لنتعرف على أي طريق نسير، فلربما كان سيرنا على طريق العسر وقد اعتدناه ونحسب أنفسنا على طريق اليسر، فلنقرأ الإرشادات جيدًا ولنصحح المسار إلى طريق الجنة، ولنبذل ونقدم ليجعله الله سهلًا ميسرًا لنا..

٢٥ - الهداية لمستحقيها فقط

الهداية لعبادة الله، الهداية للعمل الصالح، الهداية لحسن الخلق، الهداية لحسن التدبير، الهداية للإقلاع عن المعصية، الهداية للتوبة، الهداية لحسن الكلام، الهداية للتوفيق والسداد في كل شيء، فالهداية هي التوصل إلى الصواب بعد الضلال، فغير المهتدي يعتبر ضالًّا حتى يهتدي. فكيف تأتي الهداية، وما أسبابها؟ هل هي منحة من الله تعالى يؤتيها من يشاء من عباده هكذا دون أسباب منهم؟ أم أن لمنح الهداية أسبابًا وشروطًا، فمن أداها وقام بحقها رُزق الهداية، ومن أعرض عنها حُرم الهداية؟

إذن فالهداية مسألة التبس فهمها على البعض فحادت بهم عن طريق الحق وجعلتهم مستمسكين بطريق الغواية والضلال، كثير من الناس يؤمن ويوقن بأن الهداية من الله تعالى وحده دون أسباب من العبد، وأن الله لو أراد بشخص أن يجعله تقيًّا ورعًا لهداه إلى ذلك، وأن الله لو أراد بعبد الشقاوة والتعاسة جعله عاصيًا منحرفًا وأبعده عن الهداية فما يزال مُصرًّا على معاصيه، ظانًّا أن هذه أقدار موزعة وأن هذا قدره، فقد استسلم لذل المعصية فمهما حاول الاستقامة فيعتقد أنه لن يستطيع

أن يغلب قدر الله الذي قُدر عليه، يظن أن الله كما وهب الأرزاق والأعمار وهب الهداية، فجعل من الناس أنبياء وأصفياء وأولياء وعبادًا صالحين وسعداء وأشقياء، وما دام الله هو القاسم فهو أعلم بالأحوال والله غفور رحيم. قلت يومًا لأحدهم: يا فلان اتقِ الله ودع عنك شرب الخمر، قال: وما ذنبي أنا والله قد كتب لي أن أشرب الخمر؟ لو أراد الله أن يهديني إلى الصلاح لهداني. يا فلان أدِّ فريضة الحج. قال: إن الله لم يهدني لذلك ولم يحرك باعث الحج في قلبي. يا فلان تصدق، قال: إن الله لم يهدني للصدقة ولكن هداني إلى البخل فما ذنبي؟ فهل هو على صواب أم على خطأ؟ لقد قال لي: ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ كَذَّبوا بِآيٰتِنا صُمٌّ وَبُكمٌ فِي الظُّلُمٰتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضلِلهُ وَمَن يَشَأ يَجعَلهُ عَلىٰ صِرٰطٍ مُستَقيمٍ﴾(الأنعام:٣٩)، ألم تسمع قوله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ﴿إِنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبتَ وَلٰكِنَّ اللَّهَ يَهدي مَن يَشاءُ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ﴾(القصص:٥٦)؟، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿مَن يَهدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهتَدِ وَمَن يُضلِل فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرشِدًا﴾(الكهف:١٧)؟ ما ذنبي أنا؟ فقلت له: الهداية كرامةٌ من الله لا تعطى إلا لمستحق، فهل أنت من المستحقين أم أنت من المحرومين؟ قال: ومن هو المستحق ومن هو المحروم؟ حتى الهداية جعلتم لها واسطات وقوانين؟! مستحق ومحروم؟! ألسنا كلنا عبادًا لله؟ أليست الهداية رزقًا ومنة من الله؟ فقلت له بلى، ولكن من هو على حالتك قد لا يستحق الهداية وأمثالك كثيرون، ما تقوله أنت هذا استكبار وتقوُّلٌ على الله، لقد ذكر الله أمثالك يأتون متحسرين يوم القيامة على تفريطهم بهذا الفكر

الناقص، فقال جل في علاه في سورة الزمر: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(الزمر:٥٧)، أليس هذا ما تقوله أنت الان؟... ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝﴾(الزمر:٥٨ - ٥٩). أنصحك يا هذا أن تتقي الله في نفسك ولا تتقوَّل على الله ولا تمارِ فيما ليس لك به علم... هداية الله وتوفيقه للعبد لا تأتي هكذا بمحض الصدفة وإلا فسيكون هناك ظلم لأولئك المحرومين من الهداية، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(يونس:٤٤) طاعة الله ورسوله هي مفتاح كل هداية، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(النور:٥٤).

﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾(النور:٥٤)، فطاعة الله ورسوله شرط للهداية، تعصي الله وتريده أن يهديك!! كيف يحدث هذا؟!...

لكي تتحصل على الهداية لا بد لك من صدق نية مع الله وعزيمة وطلب ودعاء، ثم صبر وجهاد نفس وإيمان صادق. يقول المولى عزوجل: ﴿ما أَصابَ مِن مُصيبَةٍ إِلّا بِإِذنِ اللَّهِ وَمَن يُؤمِن بِاللَّهِ يَهدِ قَلبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾(التغابن:١١)، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩) ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

سلوا من أقلع عن التدخين، كم حدثته نفسه بالتوبة ثم جاهد نفسه وصبر وتحمل وقاوم تلك الرغبة العارمة المؤلمة في العودة؟ سلوا من تاب عن شرب الخمر كم صبر وقاوم حتى حلت عليه الهداية بتركها وزوال أثرها؟ سلوا من أقلع عن تعاطي المخدرات، كم جاهد وقاوم وتحمل طعنات الانسحاب التي هي أشد من طعن السيوف في جسمه؟ سلوه كم صبر وكم قاوم وجاهد حتى رزقه الله الهداية ومحا ذلك الأثر المؤلم من قلبه؟ الهداية لا تأتي إلا لصاحب عزم مستحق لها، الهداية نعمة كبيرة من الله، جعل لها أسبابًا وموانع، فمن قام بأسبابها رُزق، ومن عاند واتكل حُرم.

أول أسباب الهداية الدعاء والتضرع إلى الله بطلبها ورجائها. ورد في الحديث القدسي الصحيح: "يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديتُه، فاستهدوني أهدِكُم"[1] اطلبوا الهداية من الله لأنفسكم ولأولادكم، الهداية منة من الله يقذفها في القلوب، لا تأتي إلا بتذلل ورجاء وعمل وطلب ودعاء وجهاد نفس، لذلك جعل الله طلبها فرضًا نطلبه في كل ركعة في صلاتنا ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ﴾[(الفاتحة:٦)]، اهدنا تفضل علينا بهدايتك، اهدانا أُمنن علينا بفضل الهداية فترشدنا إلى الطريق المستقيم. كما يعلمنا رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم- كيف نسترجي الله ونطلب منه الهداية في دعاء القنوت "اللهم اهدانا فيمن هديت"، "اللهم

---

١. شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢١٣٦٧ • صحيح • أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٧)، وأحمد (٢١٣٦٧) واللفظ له

إنا نستعين بك ونستهديك"... ومن أسباب الهداية والإيمان حب كلام الله تعالى وتلاوته، والخضوع له، والخشية والوجل عند سماعه، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾(الزمر:٢٣).

فمتدبر القرآن يتعظ بما فيه من الأمر والنهي؛ فتتنزل الهداية في قلبه بفعل تأثير آي القرآن.

كما أن الهداية تأتي بالتفكر والتأمل؛ فتكون دائمًا من نصيب العقلاء المتأملين المتفكرين في أحوالهم، فحين يبدأون في التفكير تنكشف لهم الأخطاء فيرجعون إلى جادة الحق، فتحدثهم أنفسهم بالتوبة والإقلاع وتعديل المسار؛ فتحصل الهداية... نشأ إبراهيم -عليه السلام- وسط عباد الأصنام ولكنه حمل قومه على التفكر والتأمل في الحال الذي كانوا عليه، ولماذا يعبدون أحجارًا صماء يصنعونها بأيديهم؟! قليل من التفكير هداه بأن هناك إلهًا غير الأصنام، هذا الكون لا بد له من خالق هو أجدر أن يُعبد، فأخذ يقررهم عن حقيقة الخالق وعن الهداية، بين عظمة الكواكب في علوها، وبين أجواء السماء في ارتفاعها، وبين جمال القمر وطلعته والشمس وسطعتها، وأراهم أنها مخلوقات تظهر وتختفي لا تلامس قناعة ولا تشفي غليلًا، ثم قررهم بالحقيقة الخالدة وقال ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام:٧٩)... لقد أكرمه الله بالهداية واختاره كي يكون نبيًّا من أصفيائه.

هكذا تأتي الهداية وهكذا تُمنح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١) فغيروا ما بأنفسكم تهتدوا، وكما جعل الله لمنح الهداية أسبابًا فقد جعل لمنع الهداية أسبابًا أيضًا. فالكفر والظلم والفسق والإسراف والكذب وعدم الإيمان بالله كل هذه وغيرها موانع تحرم صاحبها من نعمة الهداية.

فالكافر، والظالم، والفاسق، والمسرف، والكذاب وغير المؤمن بالله لا يستحق الهداية، وقد تواردت خواتيم كثير من الآيات في بيان نفي الهداية عن هذه الأصناف:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٦٤)

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران:٨٦)

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(التوبة:٣٧)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(غافر:٢٨)

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل:١٠٤)

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٦٤)، حتى لو كان هذا الكافر ابن نبي، فالله لا يقذف في قلبه الهداية، وهذا ما حصل لابن نوح -عليه السلام- ظل مُصرًّا مستكبرًا معاندًا ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾(هود:٤٢)، الماء ينهمر والمنسوب يرتفع

والوعد يصدق أمامه، ولكنه يرد معاندًا ويقول سآوي إلى جبل يعصمني من الماء. لقد حُرم الهداية. وهكذا يكون مصير كل معاند متكبر، لا يقذف الله في قلبه الهداية، فاحذروا موانع الهداية!

الخلاصة... إن للهداية أسبابًا من عمل بها رُزق الهداية، ومن أهمل الأسباب حُرم الهداية، فاجتهدوا في تحصيلها بالتقرب والتودد إليه، [عن أنس بن مالك:] إنّ القُلُوبَ بين إصْبُعَينِ من أصابِعِ اللهِ يُقَلِّبُها.[1]

يقول المولى – جل وعلا- :﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرعد:٢٧] فالله يهدي من تاب ورجع وتتضرع إليه.

١. السيوطي (ت ٩١١)، الجامع الصغير ٢٠٨٠.. صحيح

٢٦ - شهادة ذرية بني آدم بربوبية خالقهم

يقول تعالى: ﴿وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشهَدَهُم عَلىٰ أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم قالُوا بَلىٰ شَهِدنا أَن تَقولوا يَومَ القِيٰمَةِ إِنّا كُنّا عَن هٰذا غٰفِلينَ ۝ أَو تَقولوا إِنَّما أَشرَكَ ءاباؤُنا مِن قَبلُ وَكُنّا ذُرِّيَّةً مِن بَعدِهِم أَفَتُهلِكُنا بِما فَعَلَ المُبطِلونَ ۝ وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيٰتِ وَلَعَلَّهُم يَرجِعونَ﴾(الأعراف:١٧٢ - ١٧٤).

هذه آية عظيمة تحير عقل المتأمل، فيتساءل كل منا: ألست من بني آدم؟ ترى هل أخذ الله عليَّ العهد وأشهدني على وحدانيته وأنا غير مدرك؟! هل أتذكر الحدث؟! هل أتذكر ذلك العهد الرباني؟! هل أتذكر تلك الشهادة التي أشار إليها المولى في الآية الكريمة والتي يؤكدها جل في علاه ويحذرنا نحن بني آدم من إنكار ذلك وأن نقول يوم القيامة كنا عن هذا غافلين ﴿أَن تَقولوا يَومَ القِيٰمَةِ إِنّا كُنّا عَن هٰذا غٰفِلينَ﴾(الأعراف:١٧٢)؟!

إذن فالأمر يحتاج إلى بحث وتدبر، فالمولى -جل في علاه- قوله حق وفصل، ولعل الحديث التالي يعطينا شيئًا من التفصيل: ((.... قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب -رضي الله عنه- في قول الله تعالى ﴿وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ مِن

﴿ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم﴾(الأعراف:١٧٢). الآية والتي بعدها، قال: فجمعهم له يومئذ جميعًا، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم أرواحًا ثم صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، الآية. قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئًا، وإني سأرسل إليكم رسلًا يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب، لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أُشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخُصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذي يقول تعالى ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾(الأحزاب:٧) وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا فِطرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِ ذٰلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ﴾(الروم:٣٠)، ومن ذلك قال: ﴿هذا نذيرٌ منَ النذرِ الأولى﴾(النجم:٥٦) ومن ذلك قال: ﴿وَما وَجَدنا لِأَكثَرِهِم مِن عَهدٍ وَإِن وَجَدنا أَكثَرَهُم لَفٰسِقينَ﴾(الأعراف:١٠٢) ....))[١]

١. رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم، من رواية أبي جعفر الرازي

فإذا كانت المواثيق قد أخذت علينا بني آدم، وأخذت حتى على الرسل أنفسهم، فهذا يعني أن الميثاق المأخوذ على ذرية آدم، وهو ميثاق الإيمان بالله والتصديق برسله، مستقر في فكر جميع ذرية آدم -عليه السلام- حيث إن نفوسهم وعقولهم قد هيئت وفُطرت بموجب ذلك الميثاق للإيمان والتصديق لا للتكذيب، لذلك فإن المكذبين يعترفون بعدم استخدام عقولهم وأسماعهم المفطورة على التصديق ساعة إلقائهم في النار ﴿تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيظِ كُلَّما أُلقِيَ فيها فَوجٌ سَأَلَهُم خَزَنَتُها أَلَم يَأتِكُم نَذيرٌ۝ قالوا بَلىٰ قَد جاءَنا نَذيرٌ فَكَذَّبنا وَقُلنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيءٍ إِن أَنتُم إِلّا في ضَلالٍ كَبيرٍ۝ وَقالوا لَو كُنّا نَسمَعُ أَو نَعقِلُ ما كُنّا في أَصحابِ السَّعيرِ ۝ فَاعتَرَفوا بِذَنبِهِم فَسُحقًا لِأَصحابِ السَّعيرِ﴾(الملك:٨-١١)، اعترفوا بأنهم لم يستخدموا أسماعهم ولا عقولهم المفطورة بالميثاق فلو استخدموها لوجدوها قابلة للتصديق بما جاء به المرسلون، لذلك قالوا (كذبنا)، فتكذيب رسول مجهول لا يعاتب مكذبه فقد يحتمل كذبه، ولكن تكذيب رسل قد أشهد الله الأنفس وفطرها على استقبالها والتصديق بها، فإنه بمثابة نقض عهد وشهادة توجب عقوبة ناقضها، ورب إشارة في القرآن تفيد أن البشرية فُطرت على سلامة العقل من أي معتقد قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَاللَّه أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُون أُمَّهَاتكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾(النَّحل:٧٨) (إذ يَسْتَحِيل فِي الْمَعْقُول أَنْ يَكُون الطِّفْل فِي حِين وِلَادَته يَعْقِل كُفْرًا أَوْ إِيمَانًا، إلا أن

يكون معجزة ربانية، لِأَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ فِي حَال لَا يَفْقَهُونَ مَعَهَا شَيْئًا، فَمَنْ لَا يَعْلَم شَيْئًا اِسْتَحَالَ مِنْهُ كُفر أَوْ إِيمَان، أَوْ مَعْرِفَة أَوْ إِنْكَار. قَالَ أَبُو عُمَر بْن عَبْد الْبَرّ: هَذَا أَصَحُّ مَا قِيلَ فِي مَعْنَى الْفِطْرَة الَّتِي يُولَد النَّاس عَلَيْهَا. وبذلك فإنهم يعتقدون الإيمان والكفر بعد البلوغ إذا ميزوا وَمَنْ مَاتَ صَغِيرًا مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ قَبْل أَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ الْقَلَم فَهُمْ مَعَ آبَائِهِمْ فِي الْجَنَّة, وَمَنْ كَانَ مِنْ أَوْلَاد الْمُشْرِكِينَ فَمَاتَ قَبْل أَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ الْقَلَم فَلَيْسَ يَكُونُونَ مَعَ آبَائِهِمْ: لِأَنَّهُمْ مَاتُوا عَلَى الْمِيثَاق الْأَوَّل الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْب آدَم وَلَمْ يَنْقُض الْمِيثَاق)[1]، بهذا التفصيل نكون قد اقتربنا من القناعة بأن العهد والشهادة التي أخذت علينا تتجلى لنا في فكرنا إذا كبرنا وبلغنا سن التكليف أو الرشد، فأصبح لنا عقل ينظر في ملكوت الله بطبيعته، يتأمل ويتفكر بدافع العهد المأخوذ فيهتدي لوحدانية الله بمجرد النظر بعقله بعد الإبصار بعينه، وقد أنكر المولى على أولئك الذين لم يستخدموا حواسهم للاطلاع على عهد الله في ملكوته فوصفهم بالعمي، فقال عز من قائل: ﴿أَفَلَم يَسيرُوا فِي الأَرضِ فَتَكونَ لَهُم قُلوبٌ يَعقِلونَ بِها أَو ءاذانٌ يَسمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعمَى الأَبصٰرُ وَلٰكِن تَعمَى القُلوبُ الَّتى فِى الصُّدورِ﴾(الحج:٦٤).

ثم بين أن هذا الإعراض عن التفكر هو بمثابة الكفر والتكذيب بلقائه.

١. تفسير القرطبي https://tafsir.app/qurtubi/٣٠/٣٠

﴿أَوَلَم يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ما خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما إِلَّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثيرًا مِنَ النّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِم لَكٰفِرونَ﴾(الروم:٨) فوصفهم بالكفر، إذ الكفر هو الردة والإنكار بعد التيقن بالشيء ومعرفته، فكأن الأصل هو استيعاب العقل لربوبية الله، ولكن ثمة تغافل أو تلوث أو صارف قد صرفه عن الوفاء بعهد الله والنطق بشهادة الوحدانية فكان من الكافرين، برغم دعوات الله التي تذكرهم بذلك العهد، ومنها إرسال الأنبياء والرسل، ومنها الكتب المنزلة عليهم، ومنها آيات الكون الخارقة المعجزة وما تراه أعينهم من تعاقب الليل والنهار واستقرار الشمس والقمر، يمدانهم بما يحفظ حياتهم من طاقة وضوء، وكذلك الأكسجين والماء والأمطار وكل ما سخره الله في الأرض، كلها آيات تذكرهم بذلك العهد، فما لهم ينكرون! ما لهم يكفرون العهد والميثاق! ينكر الله عليهم هذا التغابي وهذا النفور والإعراض عن التفكر في دعوة الله لهم وآياته؛ فيشبههم بالحمر المستنفرة، إذ يقول تعالى: ﴿فَما لَهُم عَنِ التَّذكِرَةِ مُعرِضينَ ۝ كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُستَنفِرَةٌ ۝ فَرَّت مِن قَسوَرَةٍ ۝ بَل يُريدُ كُلُّ امرِئٍ مِنهُم أَن يُؤتىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً ۝ كَلّا بَل لا يَخافونَ الآخِرَةَ ۝ كَلّا إِنَّهُ تَذكِرَةٌ ۝ فَمَن شاءَ ذَكَرَهُ﴾(المدثر:٤٨-٥٥). فالتشبيه بتلك الحُمر المستوحشة الفارَّة إلى غير وجهة، هو تعبير عن جنوح واستطراد وابتعاد، حتى عما يذكرهم بعهد ربهم، فماذا يريدون من شواهد وأدلة وبراهين غير التي يعيشون فيها وبها؟!

لماذا لا ينظرون إليها؟! بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفًا منشرة. قَالَ مُجَاهِد: أَرَادُوا أَنْ يُنَزَّلَ عَلَى كُلِّ وَاحِد مِنْهُمْ كِتَابٌ فِيهِ مِنَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: إِلَى فُلَان ابْن فُلَان! إذن فالعهد الذي أخذ على بني آدم حاضر في قلب كل بشر، وهو عهد الإيمان بالله والتصديق برسله، ولما أصبح العهد مؤرقًا للمأخوذ عليهم شرعوا في العبادة، فمنهم من أحسن استخدام عقله فعبد الخالق، ومنهم من أساء استخدامه فعبد ما شاء من المخلوقات من بشر وحيوان، ومنهم من بقي دون عبادة.

الخلاصة... يتضح من خلال هذا الاستعراض، بأن العهد المأخوذ علينا يتجلى لنا عند اكتمال عقولنا حيث بدأنا نفكر ونتأمل، فالعقل حجة لله على الإنسان لأن الله خلقه بقدرات هائلة، وأودع فيه من الاستدلال والعلم والقدرة ما يكشف للإنسان حقيقة وجود الله إذا تدبر به الإنسان وتفكر، ومع ذلك فإن حلم الله وعلمه بنفوس خلقه وتجاوزاتهم، ورأفة ورحمة بهم، فإنه لا يؤاخذهم ولا يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل لأنه علم مسبقًا أن أغلبهم لن يذعنوا لاستدلال عقولهم، وسينقضون العهد بحجة أنهم وجدوا آباءهم وأجيالهم على غير ذلك العهد ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٢ - ١٧٣) فأرسل إليهم الرسل لتثبيت الحجة ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٦٥)، وتدليلًا على سريان ذلك العهد في فطرة الإنسان ما نملكه بين أيدينا من أجهزة ذكية، فلعل إنسان العصر الحالي بات يدرك أن الكثير من الأجهزة كالهواتف قد غذيب ببرامج التشغيل الأساسية قبل خروجها من المصنع، فتلك البرامج هي التي تفتح الجهاز للعالم الآخر، فتمكن صاحبه من استقبال ما أرسل إليه، وكذلك تعطيه المجال لتنزيل ما طاب له من برامج معززة، فإذا كانت هذه أجهزة صماء تمكِّن عقل الإنسان من صنعها وربطها بمصدر برمجتها لتتعرف عليه وتتفاعل معه، فكيف بخالق الإنسان وعقله! كيف لا يودع فيه المواثيق والشهادات والعهود كي تنشط وتتفاعل فتعرف الإنسان على خالقه حين يرسل إليه رسولًا من عنده، أو يشاهد عظمة خلقه وبديع صنعه وآياته في كونه فيهتدي إليه ويتقرب إليه!

٢٧ - الغرائز تفجر الطاقات..

حين أعطى الله النفوس حرية التصرف ملكها بغرائز تدفعها لتحقيق مراد الله فيما يضمن استمرار الحياة وسلامة المخلوقات، فحين قدر الله أن يكون التكاثر في الدنيا عن طريق التناسل في مخلوقاته أودع فيها غريزة الجنس لتفجر طاقة إقبال الزوجين على بعضهما البعض، فبدونها لن تعير أنثى بالًا لذكر ولن يعير ذكر بالًا لأنثى، ولضمان رعاية المولود أودع غريزة الأمومة لتفجر طاقة الحنان والحماية والرعاية لذلك المولود، أيًّا كان جنسه ونوعه، كما عزز تلك الرعاية بغريزة الأبوة التي توفر سقف أمان للمولود، ولضمان تلك الرعايتين فلا ولادة تحدث دون ذكر وأنثى، وتلعب غريزة الأمومة دورًا فعالًا في بث الطاقة في كل أنثى، فتدفعها للتضحية بالغالي والنفيس والإقدام على مهام خطرة قد تعرض حياتها للخطر في سبيل إنقاذ وليدها، فتجد الطائر الضعيف يهاجم أفعى في سبيل إنقاذ صغاره، وكذلك تلعب غريزة الغيرة دورًا كبيرًا في تأمين سقف حماية لكلا الزوجين، قد يرى البعض أن هذه ردود أفعال طبيعية في المخلوقات، ولكن نظرة بعين العقل تكشف أن الغرائز طاقات فطرية ذكية أوجدها الخالق، تتفجر لضمان توجيه المخلوق للقيام بدور محدد في وقت محدد قد يمتد أو يقصر، فتدفع صاحبها أو تجذبه بقوة تحول دون أن تشغله

الملهيات الأخرى في الحياة عن تحقيق ذلك، فغريزة الأمومة والأبوة مثلًا تسري في الوالدين مدى حياتهما لا يمنعها مانع، ولكن تتفاوت درجة الارتباط والعطف حسب حاجة الأبناء، فهي إلى الصغير أكبر وأكثر، والسبب أن الطفل بحاجة إلى مزيد رعاية، كذلك فهي إلى المريض منهم أكبر لأنه بحاجة إلى مزيد رعاية، وهي إلى الغائب أكثر من الحاضر لضمان استمرار الرابطة، وربما تزيد بسببها متابعته عن بعد ومراسلته وتسليته والتوصية عليه فيصله أثرها وكذلك حتى لا يضعفها البعد والزمن فتكون محفوظة له حتى عودته، فالغرائز طاقات أودعها الخالق كل مخلوق، توجهه لأداء الدور المطلوب في الحياة بشكل طبيعي، ولو تخيلنا حياة دون غرائز دافعة لواجهت البشرية وغيرها من المخلوقات خطر الإهمال الذي يتبعه الانقراض، إذ لا اهتمام بتزاوج، ولا أمومة حاضنة، ولا أبوة حامية، ولا نمو ولا تطور، ولا ملكية، فحين تختفي غريزة التملك والاستحواذ، يختفي الملاك، فلا رجال أعمال ولا مستثمرين، فلا مصانع ولا شركات ولا مباني ولا تطور ولا غريزة سيادة تخلق حكامًا وأولياء أمور، فلا ضبط ولا نظام، وكذلك لو وجدت تلك الغرائز المتفجرة في المخلوقات دون ضابط يضعها في المسار الصحيح لحدثت الفوضى، لذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسُنت القوانين من أجل ضبطها وتوجيهها في المسار الصحيح، فلو اعترى تلك الغرائز خلل بسبب جنون أو سكر أو مرض ينتج عن ذلك شذوذ أو ارتكاب أفعال جرائم لا تقبلها الفطرة.

الخلاصة: إن الغرائز طاقات محركة، أودعها الله مخلوقاته، وهي معجزات تكمن في اللاشعور حيث تفجر الطاقات في المخلوق دون اختياره، بل يذعن منقادًا لتنفيذها كرغبات وضرورات بالنسبة له دون أن يدرك حقيقة مصدرها أو اكتشافه، إذ لا يمكن اكتشافها بالأجهزة أو توصيفها أو معرفة كنهها كما عُرفت الغدد الصماء بأنواعها تلك التي تتحكم في المزاج والنمو وغيره، بل إن الغرائز هي من أمر الله، كالروح تسري في المخلوقات... ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (الإسراء:٨٥)

٢٨ - متعة البغي في الحياة

حين تنظر بعين العقل إلى تركيبة النفوس البشرية وغير البشرية على كوكب الأرض، تجد طبيعة البغي والتعدي أصلًا في تكوينها، ففي عالم البهائم مثلًا، تجد الضباع والكلاب تغزو وتفترس إذا جاعت، والأسود تنقض على ضحاياها أنَّى شاءت، والثعابين تعيش على التهام الطيور والقوارض، الحشرات تلسع والأسماك يلتهم بعضها بعضًا، والجوارح من الطيور تخطف ما تشاء من فرائس، أما البشر فقد تجاوزت نفوسهم خطوط الحاجة في البغي، فمنذ خلق الإنسان على الأرض وجد متعته في البطش والبغي والقتل والسيطرة، منذ عهد آدم -عليه السلام- وأبنائه ثم عهد الرسل والأنبياء والصحابة والتابعين، هذا يقتل أخاه، وأولئك يقتلون الأنبياء ويسفهونهم، أولئك يرمون أخاهم في الجب، وذاك نبي يُصلب، ونبي يلقى في النار، وناقة نبي تُعقر، وفرعون يذبح الأطفال، وأصحاب الأخدود يحرقون، وبلال يُسدح على رمل الصحراء الحارق ليعذب مع آل ياسر، وتقام مجازر الأندلس، وتطحن التصفيات العرقية بين الأجناس مئات آلاف بل عشرات الملايين، فتُجهز الجيوش، وتتوالد تنظيمات كداعش وما شاكلها تنبلج لا يُعرف أصلها وفصلها! تزعزع الكيان وتحصد الأرواح

باسم الدين تارة وباسم العرق تارة أخرى، ثم تختفي، شخصيات تلمع، رموز تُنصَّب، حريات تُسلب وأفواه تُكمم وشعوب تُضطهد، دول تحت الوصاية والاحتلال، وسجون تشهد التعذيب والإذلال، متطرف لدين أو متعصب لمذهب أو يمين أو يسار يطلق نيران رشاشه على الأبرياء، أو ينزع فتيل حزامه ليخلف وراءه عشرات بل مئات الجرحى والقتلى! ما هذه الحياة التي ما فتئت تَسْكُنُ وتهدأُ منذ خُلِقت مخلوقاتها! أين نعيش؟! على كوكب الحياة أم على مسرح البغي والإجرام؟! لا يمكن للخالق الذي أتقن كل شيء أن يعجزه تهذيب النفوس التي خلقها على كوكب الأرض، ولكن ثمة إرادة عليا وثمة حكمة من الله سبقت فركب بها النفوس حين خلقها ﴿وَنَفسٍ وَما سَوّىٰها ۝ فَأَلهَمَها فُجورَها وَتَقوىٰها﴾ (الشمس:٧ - ٨) فلم يسلبها حريتها، بل أفسح لها المجال لتمارس ذاتها في حياة جُعلت في الأصل مسرحًا لاختبارها ولكنه – جل وعلا- حذر النفوس من فتنة البغي وبيَّن أن ما تحققه من مكاسب مادية ومعنوية من وراء هذا البغي إنما هو متاع زائل ستحاسب عليه: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:٢٣)، فالبغي والظلم والطغيان والتعدي على الآخرين في أصله متعة الحياة، وحين ترى الظلم والاستبداد يستشري في الأرض دون تدخل من الله لإيقافه أو ردعه، رغم تأكيده سبحانه بأنه يشاهد ما يفعلونه من فجور وظلم وتعدٍّ وطغيان ﴿وَهُم عَلىٰ ما يَفعَلونَ

بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَما نَقَمُوا مِنهُم إِلّا أَن يُؤمِنوا بِاللَّهِ العَزيزِ الحَميدِ ۝ الَّذي لَهُ مُلكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ وَاللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ﴾(البروج:٧-٩)، يتأكد لك بأن للمشهد بقية لم ترها بعد؛ حيث إن الله عدل لا يرضى بالظلم،كما أخبرنا -جل وعلا- عن نفسه ﴿ما يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيَّ وَما أَنا بِظَلّٰمٍ لِلعَبيدِ﴾(ق:٢٩)، وكما ورد في صحيح مسلم: عن [أبو ذر الغفاري] يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي وجعلتُهُ بينَكم محرَّمًا فلا تَظالموا.[١]، إذن فكيف يسمح لأولئك بالظلم والطغيان؟! وإذا علمت بأن كل ما يدور على مسرح الحياة مرصود ومسجل ومصور بكل تفاصيله، ولا يمكن على الإطلاق أن تخفى منه خافية على الله ﴿يَومَئِذٍ تُعرَضونَ لا تَخفىٰ مِنكُم خافِيَةٌ﴾(الحاقة:١٨) وجميع الدسائس والأسرار لديه معلومة ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَة فِي السَّمَاء وَالْأَرْض إِلَّا فِي كِتَاب مُبِين﴾(النمل:٧٥) مَا مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْض سِرّ وَلَا عَلَانِيَة إِلَّا يَعْلَمهُ. فهنا يرتاح الضمير وينشرح الصدر، وتطمئن النفوس وتهون وتصغر مصائب الدنيا حين تعلم بأن للمشهد بقية وأن القصاص قادم والحساب قائم والمظالم مردودة، حين توقن بأن من تسلط عليك وتجبر وظلمك سوف ينتصر الله لك منه ويقتص لك حتى ترضى، فهناك تشفى الصدور وهناك تقر الأعين وهناك التمتع بذل المتغطرسين والمتجبرين، هناك ترى المظلومين المقهورين قد مكنهم الله من الظالمين، هناك تُفضح أسرار المتآمرين، هناك يظهر المخادع

١. صحيح مسلم (٢٥٧٧)

والدجال والكذاب والماكر والموالي لأعداء الله والمتظاهر بالصلاح وهو على غير ذلك، لقد اشتاقت نفوس المظلومين إلى يوم القصاص.

الخلاصة... إن متعة البغي ونشوة الظلم والطغيان في الدنيا هي أدوات استدراج النفوس الباغية للهلاك في الآخرة، وأن الحياة الدنيا هي جزء من حياة خالدة والموت نقطة عبور إليها، وليتيقن كل عاقل بأن الله يحب خلقه ولن يتركهم هكذا يبغي بعضهم على بعض دون قصاص!! فالقصاص قادم، والعدل قائم، والحقوق مسترجعة، والمظالم مردودة، والكرامة محفوظة، والحق ظاهر، والباطل زاهق، وما يفصلنا عن كل ذلك سوى لحظة قادمة قد تكون أقرب إلينا من شراك نعالنا، فلا تأسَ على قوم كافرين ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(آل عمران:١٩٦ - ١٩٧) وأن طغيان الدنيا متاع زائل، وما عند الله خير وأبقى ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(القصص:٦١)..

٢٩ - أفراح الدنيا وأفراح الآخرة

فرح الدنيا فرح موهوم زائل، فبرغم ما فيه من الفرح البريء كالفرحة بمولود أو نجاح أو تخرج أو كسب حلال، إلا أن كثيرًا منه مبني على ضررٍ أو خسارةٍ أصابت الآخر. فرُبَّ فرحان بكسب حرام ورب فرحان بضرر أصاب غريمًا، ورب فرحان بخسارة منافسه، وحتى فرحة اللعب واللهو لا تبنى وتستشعر إلا بقدر ما يحزن ويؤلم الطرف المنافس. وهناك فرح البغي والتسلط، كالذين يفرحون بتعذيب المظلومين وسجنهم بغير حق ﴿ذَٰلِكُم بِما كُنتُم تَفرَحونَ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَبِما كُنتُم تَمرَحونَ ۝ ادخُلوا أَبوٰبَ جَهَنَّمَ خٰلِدينَ فيها فَبِئسَ مَثوَى المُتَكَبِّرينَ﴾ (غافر:٧٥-٧٦).

أما فرح الآخرة فلا يقارن مع فرح الدنيا، فإذا كان الفرح هنا زائلًا فهناك الفرح الدائم، وإذا كان الفرح هنا قصيرًا فهناك الفرح الممتد، إذا كان الفرح هنا يأتي لكل الناس حتى للظالم والباغي ولمن يستحق ولمن لا يستحق، فهناك لا يأتي إلا لمستحق، هي ليست فرحة واحدة بل أفراحًا تنسكب في القلب والروح والجسد فتنعشه وتحدث فيه النشوة العظمى التي لا تذبل أو تتلاشى، أفراح الدنيا محدودة الأثر لأن مسبباتها سطحية بسيطة محدودة، لا تحدث فوارق عميقة في النفس وسرعان

ما يزول أثرها وتخمد، أما فرح الآخرة فليس مجرد شعور وإنما هو واقع حياة وأسلوب عيش، ذلك لأن مسبباته ليست سطحية عارضة، إنما هي متأصلة متجددة غير معتادة، فأعظم فرحة على الإطلاق هي فرحة الحياة، فكما عشت ألم الفراق عند الموت فلك الآن أن تتخيل فرحة اللقاء بعد الحياة، أولًا حياتك أنت بذاتك ونفسك بعد أن كنت ترابًا، تعود للحياة من جديد، أي شعور وأي عبارة يمكن أن تصف لحظة وجود وبعث ووعد يتحقق لك بخلق جديد! حين ولدت في الدنيا لم تكن تدرك شعور الفرح لأنك ولدت طفلًا دون ماضٍ قد عشته، فقد تشكل الحياة بالنسبة لك نوعًا من الخوف والهلع لأنك خرجت من رحم أم كان يحتويك دون تجربة حياة سابقة، أما يوم البعث فستخرج مكتمل الشعور، مدركًا لقيمة الحياة والبعث من جديد، فكم سيتضاعف لديك شعور النشوة والفرح إذ كنت مؤمنًا بقضية قد قضيت حياتك الدنيا تصلي وتصوم وتعمل من أجلها، لإجل وعد قد صدقته ولم يصدقه كثير من أقران الحياة إذ كان ذلك الوعد غيبًا بالنسبة لك وبالنسبة لهم!! فتخيل حجم الفرحة وأنت ترى أن ذلك الوعد يتحقق وأنك قد بُعثتَ كما بُعث أقرانك المكذبون، فتخيل الآن درجة تفاخرك وزهوك ومشاعرك وأنت تختال نجاحًا وفوزًا بكسب رهان قد آمنت به وقضيت عمرك السابق تعمل من أجله! لك الآن أن تتخيل درجة السعادة والبهجة التي ستغمرك، وأنت تعيش ألوانًا جديدة من الأفراح لم تعهدها من قبل! سأذكر لك بعضًا منها، فحين تجد

نفسك قد رُكبت في جسد جديد وفي قوام وجمال لم تعهده من قبل، فتخيل حجم النشوة والفرحة التي سيحدثها لك ذلك التغيير، كيف لا وأنت الذي كنت تفرح حين كنت تقتني جديدًا في دنياك كثوب أو ساعة أو سيارة أو حتى حدوث تغيير طفيف في شكل الوجه بعد عمليات التجميل، فما بالك ونفسك تقتني جسدًا جديدًا لم يخرج من رحم أنثى بل أنشئ بعناية الله، غاية في الجمال والرشاقة والفتوة والكمال، قد صُمم للخلود والبقاء والنعيم وفوق كل هذا يقال لك بأن جسدك الجديد لا يهرم ولا يبلى ولا تصيبه الأمراض ولا الشيخوخة على الإطلاق! كم هي فرحتك حين تعيش طعم الفوز العظيم وهو بشارتك بمغفرة الله لك، فإذا تلك السيئات والمعاصي التي شغلت بالك خوفًا من أن تدخلك النار، قد أبدلها الله لك حسنات، فكنت ممن قال فيهم جل في علاه ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا...﴾ (الفرقان:٧٠)! فهي أشبه بفرحة عفو قد صدر لمحكوم بالإعدام، فكم هي فرحة النجاة من النار تلك التي يتعوذ منها المؤمن طول حياته، فإذا رآها يوم العرض زاد فزعه منها ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (التكاثر:٦-٧) وبعد أن يرى الخطر بأم عينيه يأتيه العتق والبراءة منها! فتخيل حجم الفرحة التي سيعيشها كل من كتبت له النجاة من النار والتي يقابلها الفوز بالجنة! حين يشفى غليلك ممن ظلمك وبغى عليك في الدنيا كم هي فرحتك! حين تجد نفسك واقفًا تحت ظل العرش وغيرك يصطلي بحر شمس القيامة كم هي فرحتك!

حين ترى القراريط من جبال الحسنات التي كسبتها توضع في موازينك كم هي فرحتك! حين ترى ميزان حسناتك يرجح بميزان سيئاتك كم هي فرحتك! بل تخيل كم ستتضاعف الفرحة حين تؤخذ تلك السيئات من كفتها وتحول بثقلها إلى ميزان الحسنات لترجح بك إلى جهة الجنة! حين ترى آلافًا بل ما شاء الله من الأعداد تُخطف من أمامك وخلفك فتُسحب على وجوهها إلى النار وأنت خائف ترتجف فينادى: فلان ابن فلان، لقد كتب الله لك النجاة فاذهب إلى الجنة! أي فرحة تلك التي سوف تعيشها!!

حين تلقى نبيك محمدًا -صلى الله عليه وسلم- على الحوض الشريف لتشرب من يديه شربة لا تظمأ بعدها أبدًا كم هي فرحتك! حين تجد نفسك مع من يقول لهم الله: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الزخرف:٦٨) كم هي فرحتك! حين تسمع الملائكة يخاطبونك أنت ومن حولك ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٣٢)، حين يقال لكم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (الزخرف:٧٠)!.

أما أفراح دخول الجنة والاستقبال، وما ستراه عيناك لأول وهلة في تلك الجنة التي مضى عمرك في الدنيا وأنت تسمع بها وتتمناها، ومن أجلها قُدمت أرواح وبُذلت أموال وجُوعت بطون بطول الصيام، من أجلها قُدم الغالي والنفيس في الدنيا، من أجلها تحملت الظلم والقهر، من أجلها أمسكت نفسك عن ملذات الدنيا المحرمة، من أجلها كتمت غيظك

وبذلت صبرك، فكم أنت مشتاق بل تحلم برؤيتها! فبعد انتظار طويل وبعد معاناة ومقاساة مع الأمراض والمصائب والفواجع التي أصابتك في الدنيا، وبعد موت وبعد بعث وبعد حساب وبعد خوف وبعد وبعد... ها أنت الآن شارفت على رؤيتها ليس بينك وبينها إلا منعطف صغير، ليس بينك وبينها إلا دقيقة أو ثوانٍ معدوة فتنكشف أمامك، تخيل كيف ستكون فرحتك وسعادتك حين تراها وأنت تعلم أنك ذاهب لتستقر وتخلد فيها وكل شيء فيها ينتظر قدومك الميمون فكم هي فرحتك! لا يتسع المجال لذكر الأفراح المنسكبة عند دخول الجنة!

الخلاصة: إن فرح الدنيا يشبه الحلم، سرعان ما يتلاشى وينتهي أثره بمجرد أن تصحو من نومك لتعيش واقع الحياة، فأفراحها زائلة كالمتاع الزائل الذي لا وزن له ولا قيمة مهما بلغ منتهاه ﴿أَفَرَءَيتَ إِن مَتَّعنَٰهُم سِنِينَ۝ثُمَّ جَاءَهُم مَا كَانُوا يُوعَدُونَ۝مَا أَغنَىٰ عَنهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾(الشعراء:٢٠٥-٢٠٧) ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾(الرعد:٢٦).

٣٠ - تعرف على كيانك

من أنت؟ حين تقول أنا فلان ابن فلان فإنك لا تعني بذلك جسدك الحاضر، بل تعني كل ما تستحضره من معنويات مجدك وتاريخك ومالك وقوتك وعلمك وأخلاقك وأفعالك، هذا هو الأنت أو الأنا المعتبر لديك... نظرة بعين العقل تكشف لنا أن الإنسان مزيج من شخصيتين: شخصية معنوية تتمثل في حسبه ونسبه وأفعاله وأملاكه، وشخصية ماثلة حاضرة في قوامه وهيئته ويقظته، فمن هو الإنسان في حقيقته؟ هل هو الجسد القائم النائم؟ أم هو الروح التي تسري في جسده؟ أم هو الشعور الحاضر عند اليقظة الغائب عند النوم؟ أم هو ثلاثة العناصر مجتمعة في بعضها: (الجسد، والروح، والنفس) إذ لا تكتمل الشخصية الاعتبارية للشخص إلا إذا حضرت العناصر الثلاثة؟

فالجسد وحده لا يعد شخصية اعتبارية إذا خرجت منه النفس عند المنام رغم وجود الروح سارية فيه، وكذلك الميت، يكون حاضرًا بجسده فقط حيث غابت نفسه وروحه.

والروح ليس لها اعتبار شخصي، فهي أداة مشغلة للجسد فقط، ويُستشعر وجودها من خلال حياة الجسد.

والنفس كذلك، ليس لها اعتبار وجود، فالرائي والمرئي في المنام ليس لحضورهما اعتبار في مشهد الرؤية حيث حضرت نفساهما في مكان دون وجود الجسد والروح وإن كانت حاضرة في المنام فهي كحضور الجن لا يراها الآخرون.

فحين يقال "حضرة فلان" فإنها كلمة تعني الثلاثة، فحضرتك تعني هيئتك بكامل قواك العقلية وجسدك وروحك، أما ذات الإنسان فهي نفسه المتحكمة في مشاعره وأقواله وأفعاله.

والسؤال الوجيه: من السيد المسؤول المتحكم في هذه العناصر الثلاثة؟ وعلى من تقع الملاحقة والمتابعة؟ وهل يمكن أن يُقتص من عنصر منفرد؟ بمعنى هل يمكن أن يعاقب الجسد إذا خرجت منه الروح أو النفس؟ وهل يمكن أن يُقتص من الروح وهي التي يرتجى بقاؤها في الجسد كي يُنال منه أو منها فإذا خرجت عجز الطالب عن إيجادها أو الوصول إليها أو إرجاعها؟ وهل يمكن أن تعاقب النفس وحدها دون جسد يحملها مع روحه؟ في نظرة العقل ربما تكون النفس هي الأقرب للمساءلة الفردية؛ ذلك لكونها تعيش أحيانًا في أجواء خارج نطاق الجسد والروح أثناء النوم، فيرى الإنسان نفسه حاضرة في مكان غير المكان الذي فيه جسده وروحه والذي قد يكون سرير نومه، لكنه يجد نفسه تحلق في عوالم أخرى، تتفاعل سلبًا وإيجابًا وفرحًا وخوفًا وشعورًا بحر وبرد على

خلاف واقع المناخ الذي فيه الجسد، وربما حملت رسائل في منامها لتبلغها لأشخاص بعد عودتها للجسد واستيقاظه من نومه، ولعل هذا الطرح يكشف لنا جوهر الإنسان، فحين ندرك أننا نتعامل مع ذات قابلة للتحرر من قيد جسدها، فإن علاقتنا بها ستكون مبنية على علاقات واعتبارات ما بعد الجسد والحاضر حيث إننا نتعامل بذات النفوس التي تملك ذات القدرات. وللحديث عن إمكانية وصلاحيات وقدرات النفس البشرية التي أعطاها الله للبشر، لا بد من فهم تركيبة الإنسان، ولشرح هذا المعنى أستعين بوسيلة باتت هي الأقرب للتوضيح لم تعرفها الأجيال السابقة، وهي الهاتف المحمول:

(هاتف، بطارية، برامج = جسد، روح، نفس).

- الجسد... الهاتف: هو الوعاء الحامل للبطارية ولمجموعة الدوائر المشغلة، وهو بمثابة الجسد الذي تسكنه الروح ومجموعة الأجهزة المشغلة للجسم.

- الروح... البطارية: هي مصدر الطاقة المشغلة للهاتف، وتكتسب قوتها من مصدر شحن خارجي، فإذا فرغت مات الهاتف وانقطع عن الخدمة، وهي بمثابة الروح المشغلة لجسد الإنسان، وتستمد طاقتها وقوتها من مصدر إلهي، فإذا خرجت منه مات الجسد، فهي مادة حياة تسري في جميع المخلوقات فتعطيها الحياة، فمصدرها الله وحده، وأمرها

من الله، يحيي بمدها ويميت بسلبها، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(الإسراء:٨٥). ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(الحجر:٢٩). ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(الأنبياء:٩١)، والروح غير مسؤولة وغير محاسبة، تدخل الجسد مكتملة القوة عند بداية تكوينه فتمنحه الحياة، وتفارقه مكتملة القوة عند ضعفه وانتهاء أجله فتحدث موته.

- النفس... وهي بمثابة نظام التشغيل ومجموعة البرامج المحملة والحاوية لمجموعات المتصلين، وغيرها المرتبطة بمصادر خارجية عن طريق السحابة الإلكترونية (I CLOUD) فإذا فُقد الهاتف أو تم استبداله بهاتف جديد تم إعادة تنزيل جميع برامجه السابقة عن طريق رمز التعريف بالسحابة الإلكترونية؛ فيكتسب شخصية ومحتويات الهاتف القديم ولكن بمواصفات وإمكانات وقدرات الهاتف الجديد، وكذلك نفس الإنسان، فإنها تفارق الجسد القديم عند موته ثم تحل في جسده الجديد يوم البعث ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾(الواقعة:٦٠-٦١) ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾(النجم:٤٧)، فتعود مجددًا لجسد الإنسان بعد البعث فتكسبه شخصيته السابقة ولكن بمواصفات وإمكانات وقدرات الجسد الجديد ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾(التكوير:٧)، أي قُرنت بأجسادها فاستعادت ذاكرتها ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾(النازعات:٣٥).

إذن فاعتبار الإنسان ومركزه ومرجعه وذاته هي نفسه الثابتة القابلة للتنقل والتعقب والمحاسبة وليست روحه المشغلة لجسده، وليس كذلك جسده المتغير المعرض للفناء، فنفس الإنسان هي المخلوق المؤثر المتأثر غير المرئي، هي التي سواها الله وأعطاها صلاحية التقوى والفجور، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس:٧- ٨)، ثم هيأ لها شكل الإنسان الذي ستقضي فيه فترتها الأولى... ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(الانفطار:٨).

فالنفس هي الذات والكيان المتطور الذي خُلق للخلود والتي من أجلها يخلق الله -تبارك وتعالى- جسدين، الجسد الأول يتم تشكيله وتهيئته لها في بطن الأم ثم تُنفخ فيه الروح ليصبح مأوى مجهزًا تحل فيه بالتدريج، فتولد بميلاد الجسد الذي تسكنه كمادة نفس خام غير مشكلة، فتمر بمرحلة تكوين مرتبطة بنمو الجسد وقدراته، فتبدأ باكتساب المعارف والعادات والمهارات كاللغة وغيرها، وتتدخل هنا المؤثرات والبيئة الخارجية في تشكيلها، كالوالدين والتعليم والمجتمع، فتأخذ في النمو والإدراك والاتساع واكتساب الخبرة طول فترة بقائها في الجسد وهي الفترة المحددة لها مسبقًا في اللوح المحفوظ، وربما تزيد أو تنقص بأمر خالقها، ولا تكون هذه النفس محل اعتبار وتكليف إلا إذا اكتمل عقد نزولها ونضجها في الجسد وأصبحت قادرة على التدبر واتخاذ القرار الصحيح وهو ما يسمى بعمر الرشد، فإذا لم تبلغ هذه المرحلة

من النضج والإدراك، حتى لو عدت المرحلة الزمنية الافتراضية سقط عنها التكليف، فتعفى من المحاسبة لاحقًا، فتعامل معاملة الأطفال الأبرياء، فلا تكليف على طفل أو مجنون أو مختل في عقله لأنه لم يبلغ الرشد الحقيقي.. وقد أُعطيت النفس ميزة التنقل والمغادرة ولكن ليس بخيارها، فهي تغادر الجسد عند النوم وعند التخدير ثم تعود إليه ولكنها تغادر أيضًا عند استيفاء المدة المقررة لها دون رجعة إليه لتنتقل إلى عالم آخر، فترجع إلى خالقها بعد أن اتخذت اسمًا وتشكلت خلال فترة الحياة واتخذت شخصية اعتبارية تُعرف بها بين الخلائق، وقد حدد لها نوع الحياة الأبدية القادمة بناء على ما قدمته وأبلته خلال الفترة التي مُنحت إياها في حياتها السابقة.. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَالَّتِى لَم تَمُت فِي مَنَامِهَا فَيُمسِكُ الَّتِي قَضىٰ عَلَيهَا المَوتَ وَيُرسِلُ الأُخرىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر:٤٢).

وعند فراق الوفاة لا يصبح للنفس علاقة بالجسد الذي سكنته وبالروح التي كانت سببًا في حياته فالروح ترجع إلى خالقها، والجسد الأول يُدفن في التراب ليوارى عن الأنظار أو يتحلل كرامة لذات النفس التي كانت تسكنه، أما النفس فترجع إلى ربها فيقربها أو يبعدها، يكرمها أو يهينها ﴿يٰأَيَّتُهَا النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ ۝ ارجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ راضِيَةً مَرضِيَّةً ۝ فَادخُلِى فِى عِبٰدِى ۝ وَادخُلِى جَنَّتِى﴾(الفجر:٢٧-٣٠) حسبما كانت تقدمه ﴿فَأَمّا إِن كانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ۝فَرَوحٌ وَرَيحانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمّا إِن كانَ مِن

أَصحٰبِ اليَمينِ ۝ فَسَلٰمٌ لَكَ مِن أَصحٰبِ اليَمينِ ۝ وَأَمَّا إِن كانَ مِنَ المُكَذِّبينَ الضّالّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِن حَميمٍ ۝وَتَصلِيَةُ جَحيمٍ ۝ إِنَّ هٰذا لَهُوَ حَقُّ اليَقينِ ۝ فَسَبِّح بِاسمِ رَبِّكَ العَظيمِ﴾(الواقعة:٨٨-٩٦)، فبعد فراق طويل لجسد الدنيا الذي يفترض أنه تلاشى وأصبح ترابًا لطول مدة فراقه بعد الموت، وتهيئةً للبعث الجديد يوم النشور فإن الخالق -تبارك وتعالى- يخلق لها الجسد الثاني، جسدًا جيدًا يحمل مواصفات البقاء والخلود يوم البعث، فلا يمرض ولا يهرم ولا يذبل فتأوي إليه ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾(الواقعة:٦٠-٦٢).

فلعلك الآن تعرفت أكثر على ذاتك ونفسك التي لا يمكن أن ينالها شيب أو هرم، فأنت بهذا الكيان والاعتبار نفس مكرمة متنقلة، تتطلع لمستقبل مشرق عند ربها، لا ينتهي بسنين الحياة الأولى المعدودة، فكلما كبرت سنك في هذه الحياة وضعف جسدك تشعر بشباب نفسك واستمرارها وتعلقها وطموحها الذي لا يناسبه عمر الدنيا المتعثر على الإطلاق، فهنيئًا لمن أدرك هذه الحقيقة وعمل مخلصًا من أجل نفسه ومستقبل حياته!

٣١ - أحرجتني زهرة!

بينما كنت ماضيًا في طريقي نادتني: تعالَ لترى الله. تقربت ونظرت فلم أرَ شيئًا! قلت لها: أين هو؟ قالت: انظر في عروقي. قلت: مجرد عروق. قالت: انظر في لوني. قلت لون كسائر الألوان. قالت: شم رائحتى. قلت: عطر كسائر الزهور والعطور. قالت: لي معذرة حسبتك إنسانًا، قلت لها: وأنا كذلك، ألا تنظرين إلى تقاسيم وجهي وقامتي؟ ألا تنظرين إلى جمال عيني؟ قالت: ما بهذا يتميز الإنسان، فالغزالة التي ترعى ورقي عينها أجمل من عينيك الضيقتين، وعين النسر الذي يرمقني من بعيد أقوى من عينيك الضعيفتين، والنحلة التي تشتم رائحتي فأجذبها لتلاطفني وتمتص رحيقي أرقى من أنفك المسدود.. فالإنسان الراقي هو من يتميز بعين تبصر الخالق، وعقل يراه... اعذرني يا هذا، فأنت أعمى لا ترى، وأنت أزكم لا تشم، وأنت حجر لا تدرك الجمال، أخشى عليك أن تكون ممن قال فيهم خالقي ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٤٤)!.

حينها نكست رأسي خجلًا وعاودت النظر لتنفتح عين عقلي على معجزة الخالق إذ جعلها آية من آيات قدرته؛ حيث وهب تلك الوردة الصماء

القدرة على تحويل الماء المختلط بروث الحيوان والطين الذي تمتصه من الأرض إلى رائحة زكية، ولون أخاذ، وورد طري الملمس يعتلي غصنًا رشيقًا تزينه أوراق خضراء، ولكنه لم يعطها قدرة النطق كي تحدثنا، بل أعطانا العيون والعقل والبصر لنفهم الرسالة التي تحملها لنرى قدرة الله فيها فهل نحن مبصرون؟!

٣٢ - فمستقر ومستودع

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِن نَفسٍ وٰحِدَةٍ فَمُستَقَرٌّ وَمُستَودَعٌ قَد فَصَّلنَا الآيٰتِ لِقَومٍ يَفقَهونَ﴾ (الأنعام:٩٨).

نظرة بعين العقل لهذه الآية الكريمة تفتح لنا فهمًا آخر لكلمتي (مستقر ومستودع) مرتبطًا بنشأة المخلوقات؛ إذ يكشف لنا المولى -جل في علاه- عن قاعدة سنها في تكاثر مخلوقاته على وجه الأرض، فما يتم إنتاجه من استزراع بكتيري أو جرثومي أو جيني أو نباتي أو حيواني، إنما يخرج بعد أن تُبث فيه الحياة بقدرته، بشرط توفر سببين وهما المستَقَر والمستودَع، فالمستقَر هو المكان الحاضن الذي تستقِرُّ فيه مادة الخلق ليتم تكوينها، ثم تخرج منه إلى الوجود وهو بمثابة الرحم. والمستودَع يحتمل معنيين: الأول هو المكان أو المادة التي تحتوي الأشياء، فالمستودع هنا بمعنى المخزن، والثاني هو المادة المودعة أو المحفوظة، فيقال: استودعتك الشيء أي أمنتك إياه ووضعته عندك، فذاك الشيء مُسْتَوْدَعٌ أو محفوظٌ عند فلان، وهو من الوديعة. بهذا المعنى يكون المستودع هو الوديعة وهو مادة خلقها الله وهي أصل كل حياة، أو المادة الحية المتنقلةُ في الأصلاب التي أودعت فيها خصائص الأصناف، فمنها ما هو غاية في الدقة

كالبكتيريا والجينات والجرثومة ونواة كل شيء، ومنها ما يمكن مشاهدته بالعين كالبذرة والبويضة والنطفة واللقاح والشتلة، فمتى توفر المستقر وهو المكان والبيئة الحاضنة التي تتناسب مع نوعية المستودع المطلوب تكاثره أو تخصيبه مع الفترة الزمنية المناسبة، سرت قدرة الله ونواميس كونه في تحقق النمووبث الروح والحياة، كما يحدث في مختبرات تخصيب الخلايا وغيرها.

فلو تأملنا تكون جنين البشر أو باقي الأحياء، نجد أنه لا بد من توفر المستقر، وهو إما رحم الأم أو أي حاضنة تتوفر فيها شروط بيئة المستقر، كدرجة الحرارة المناسبة، والضغط، والتغذية، والحماية، والفترة اللازمة كحاضنات البيض والسمك، أو حاضنات الاستزراع بأنواعه: البكتيري، والجرثومي، والفيروسي، وغيره في المختبرات، ثم لا بد من توفر المستودع، وهو المادة المراد إنتاجها كحيوانات الذكورة الدقيقة، أو ما تعرف بمادة اللقاح ﴿يٰأَيُّهَا النّاسُ إِن كُنتُم فى رَيبٍ مِنَ البَعثِ فَإِنّا خَلَقنٰكُم مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُم وَنُقِرُّ فِى الأَرحامِ ما نَشاءُ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخرِجُكُم طِفلًا ثُمَّ لِتَبلُغوا أَشُدَّكُم وَمِنكُم مَن يُتَوَفّىٰ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلىٰ أَرذَلِ العُمُرِ لِكَيلا يَعلَمَ مِن بَعدِ عِلمٍ شَيئًا وَتَرَى الأَرضَ هامِدَةً فَإِذا أَنزَلنا عَلَيهَا الماءَ اهتَزَّت وَرَبَت وَأَنبَتَت مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ﴾(الحج:٥)، هذه الآية توضح عناصر التكوين، فمستقر كرحم الأم أو بطن الأرض، ومستودع كنطفة أو بذرة نزل عليها الماء فأذن الله لها بالحياة فاهتزت وخرجت بإذن ربها.

فلو تأملنا عمليات الاستزراع بأنواعها: الشجري والبكتيري والجرثومي وغيره، نرى أنه لا بد من توفر شرطين أساسيين: المستقر والمستودع، فلو نظرنا لولادة الأشجار أو استنباتها، لوجدنا أن المستقر هو التربة أو أي مادة حاضنة، والمستودع هو البذرة أو النواة، بعد ذلك يسري قدر الله في بث الحياة فيها فتخرج نبتة، كذلك الاستزراع البكتيري والجرثومي والجيني والسمكي، حين يتوفر المستقر والمستودع تتحقق معجزة التخليق الرباني، وهنا نعود إلى أصل خلق كل شيء وهو كل مستودع مهما بلغت دقته أودع الله فيه حياة تنتقل في أصلابه فيخرج حيًّا بإذن ربه حين يجد مستقره، وأن الذي يحدِث التفاعل والحياة هو الله وحده... ﴿أَفَرَءَيتُم ما تُمنونَ۝ءَأَنتُم تَخلُقونَهُ أَم نَحنُ الخٰلِقونَ﴾ (الواقعة:٥٨-٥٩)، ﴿أَفَرَءَيتُم ما تَحرُثونَ۝ءَأَنتُم تَزرَعونَهُ أَم نَحنُ الزّٰرِعونَ﴾ (الواقعة:٦٣-٦٤)، والزراعة هنا تشمل جميع أنواع الاستزراع المشار إليها، فسبحان من فصل الآيات! ﴿وَهُوَ الَّذى أَنشَأَكُم مِن نَفسٍ وٰحِدَةٍ فَمُستَقَرٌّ وَمُستَودَعٌ قَد فَصَّلنَا الآيٰتِ لِقَومٍ يَفقَهونَ﴾ (الأنعام:٩٨)

٣٣ - طاعة المستسلم

خير الطاعة هي طاعة الحر وليس طاعة العبد المغلوب على أمره، فشتان بين طاعة العاجز وطاعة القوي، شتان بين طاعة المقيد وطاعة الطليق، فما أعظم التزام القادر على المعاصي! وما أبغض شذوذ العاجز الضعيف! لقد خص الله ذلك القادر الملتزم بكرامة ظله تحت العرش، كما ورد في حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله "وشاب نشأ في عبادة ربه"[١]..

حين يمتلك الإنسان القوة والقدرة على المعصية ويلجم نفسه ويقيد رغباته الجامحة بقيد الإيمان، فلا شك أنه أعظم درجة وأسمى منزلة وأرفع شأنًا بطاعته من طاعة العاجز غير القادر على فعل المعصية، ولكن الأخير لا شك أفضل وأمثل وأحب وأقرب إلى الله من نظيره العاجز الذي يتمنى لو يعود إلى قوته ليستمتع بالمعاصي... ورد عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهمُ اللهُ يومَ القيامةِ ولا يَنظرُ إليهِمْ ولا يُزكِّيهِمْ ولهمْ عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملِكٌ كذّابٌ، وعائِلٌ مُستكبِرٌ.[٢] إنها لفرصة لكم أيها القادرون على

١. أخرجه البخاري (٦٦٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١)
٢. أخرجه مسلم (١٠٧)، والنسائي (٢٥٧٥)، وأحمد (٩٥٩٢)

النظر أن تغضوا أبصاركم طاعة لله وتعبدًا قبل أن تضعف أبصاركم، فحينها لا غضاضة ترتجى منكم.

إنها لفرصة لكم أيها القادرون على جمع المال المشبوه بالحرام أن تكفوا عن ذلك قبل أن يكفكم الضعف، فحينها لا معنى لورعكم المتأخر.

إنها لفرصة لكم أيها القادرون على العطاء أن تبذلوا أموالكم في سبيل الله، أن تقدموا لأنفسكم قبل أن تستسلموا للمرض وتشعروا باليأس فيبدأ جودكم المتأخر، فحينها سيكون عطاؤكم باهتًا لأنكم لا تملكون مقومات الاستمتاع بالمال فيكون لا قيمة له عندكم.

إنها لفرصة لكم أيها القادرون على إخراج الوقف اليوم وتحت إشرافكم، أن تخرجوه الآن قبل أن تجعلوه ضمن وصاياكم المتأخرة فلا تدرون ما يُفعل بعدكم، الفرص المتاحة لك في هذه الساعة للطاعة هي أفضل وأعظم أجرًا من فرص الساعة القادمة؛ لأنك اليوم -لا شك- أقدر من الغد على التمتع بالمال، وأنت اليوم أكثر تقديرًا لقيمة المال نظرًا لما تأمل وترتجي من مستقبل يمكن أن تستخدم فيه هذا المال، أنت اليوم أقدر وأجرأ على ارتكاب المحرم نظرًا لما تشعر به من قوة على اعتبار أن الإنسان يسير نحو الضعف وليس نحو القوة، الساعة التي أنت فيها الآن أفضل من الساعة القادمة، اليوم الذي أنت فيه الآن أفضل من اليوم القادم، فالمعيار هو درجة قوتك وشدة مقاومة ومجاهدة نفسك... لماذا

تجد كبار السن هم الأكثر حرصًا واجتهادًا على الطاعة بصفة عامة؟... يعود ذلك لسببين: السبب الأول هو درجة النضج العقلي الذي يتمتع به الأربعيني فما فوق، فيكون إدراكه لحقيقة الحياة أكثر واقعية نتيجة سنوات المعايشة والمعاركة الطويلة التي مرت به مع واقع الحياة، فصار يستوعب التوجيه الرباني بقناعة أكبر كلما تقدم به العمر نتيجة قناعات مترسخة لديه في اللا شعور.

السبب الآخر أنه يفيق فطريًّا من مرحلة الانشغال بما في الحياة إلى مرحلة التأمل والتفكر بما فيها، ينتقل إلى مرحلة الحكم والتقييم، فيصير أقرب وأكثر تقديرًا وتمسكًا لمعتقداته الموروثة، إن كانت حقًّا فحق وإن كانت باطلًا فباطل.

في هذه المرحلة تنضج ملكة التفكر؛ فيشعر أكثر بمتعة الرزانة والعقل، وقد مدح الله من بلغوا هذه المرحلة من النضج، فكان شغلهم التفكر والتأمل والذكر والاستغفار، ووصفهم بأنهم أصحاب العقول، فهم أقرب إلى ربهم من غيرهم ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١)، وهذه المرحلة تعتمد على النضج العقلي، فمنهم من يبلغها في مرحلة الشباب، ومنهم من تتأخر لديه، ومنهم من لا

ينضج عقله كالملحدين والمعاندين؛ لذلك ذكر الله المتفكرين بأنهم أصحاب عقول دون تحديد سن، فهنا تبرز قيمة الشاب المتأمل المتفكر إذا أصبح من العقلاء وشارك الكبار في تدبرهم، فكن مطيعًا لله بالإرادة، ولا تكن مطيعًا بالاستسلام.

الخاتمة

أيها القارئ الكريم.. العقل الموهوب لنا هو حجة لله علينا يوم الحساب، فلا خير في بشر لم يصل بعقله إلى إدراك عظمة خالقه، وليس العتب على العقل، بل العتب على نفس الإنسان التي أبت أن تستخدم ذلك الموهوب فترتقي به وتسمو لتحلق به في سماء خالقها ليريها ما يراه المبصرون.

كانت هذه النظرات العقلية استجابة لأمر الله الداعي لنا بالنظر والتعقل في الخلق ﴿قُل سِيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ بَدَأَ الخَلقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ﴾ (العنكبوت:٢٠)، وكذلك فإن القلوب التي لا تفقه المغزى، والأعين التي لا ترى بديع صنع الله، والآذان التي لا تطربها أصوات البلابل المغردة والتي لا ترق لسماع الآيات المرتلة هي جوارح متبلدة، لقد ذم الله أولئك العابرين في حياتهم دون تأمل وتفكر فيما حولهم وشبههم بالأنعام التي ترى بعينها ولا تنظر بعقلها ﴿وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُم قُلوبٌ لا يَفقَهونَ بِها وَلَهُم أَعيُنٌ لا يُبصِرونَ بِها وَلَهُم آذانٌ لا يَسمَعونَ بِها أُولٰئِكَ كَالأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ الغافِلونَ﴾ (الأعراف:١٧٩). قال ابن كثير: يَعْنِي لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ

الْجَوَارِح الَّتِي جَعَلَهَا اللَّه سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف:٢٦)

المراجع

- القرآن الكريم
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم: دار الطيبة، ١٤٢٠ - ١٩٩٩م
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن العظيم: الياقوتة الحمراء للبرمجيات، ٢٠١٥ noor-book.com/kprcv9
- الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن: دار هجر للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م
- الجزائري، أبوبكر جابر، أيسر التفاسير: دار العقيدة للتراث، ٢٠١٧م
- البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح: دار المنهاج للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم: دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠١٠م
- بن حنبل، أحمد بن محمد. المسند: دار المعارف، ٢٠٠٩م
- أبوداود، سليمان السجستاني. سنن أبي داود: دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م

- الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع الكبير سنن الترمذي: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٦م
- النسائي، أحمد بن علي. سنن النسائي الكبرى: مركز البحوث وتقنية المعلومات - دار التأصيل ٢٠١٨م
- الشيخ أحمد الخليلي. مصرع الإلحاد: الكلمة الطيبة، ٦٨-٨٧، ٢٠١٩م

نظرة بعين العقل

حين يحلقُ العقلُ متأملًا عظمةَ الكونِ فإنّه يصلُ إلى خالقِه، وحين يبصرُ العقلُ يرى ما لا تراه الأعينُ من معجزاتٍ، وحين تتجلى له عظمةُ الخالقِ وإتقانُه وعدلُه وقدرتُه على كلِ شيءٍ؛ تجولُ في الخاطرِ أسئلةُ الفضولِ فيبحثُ عن إجاباتِها:

أين نصرُ اللهِ المؤزرُ لمن ظُلِم؟

لم لا تنفذُ عدالةُ السماءِ في الأرضِ؟

لماذا نؤمنُ بالغيبِ؟

كيف يجري قدرُ اللهِ على حريةِ الإنسانِ؟

هل يوجدُ تواصلٌ غيرُ محسوسٍ مع اللهِ؟

لم لا تُمنحُ الهدايةُ لكلِ الناسِ؟

لم التفاضلُ في الأرزاقِ والتباينُ في الأعمارِ والأقدارِ بينهم؟

أم أنَّ هناك حياةً أخرى خالدةً قد أعدها اللهُ تتحققُ فيها معاييرُ الحياةِ الفاضلةِ؟..

ولعل هذا الكتابَ يُجيبُ على تلك التساؤلاتِ وغيرِها، في دعوةٍ للعقلِ بأن يُبصِرَ.. وللفكرِ بأن يتحررَ.. وللنفسِ بأن تهتدي

المؤلف

****

عبد القادر بن صالح الفارسي

من مواليد: 23/ 10/ 1964م مجيس - ولاية صحار

بكالوريوس التربية الإسلامية.

23 سنة عمل في مجال التعليم.

إصدار تحت الطباعة: رسالة المنبر (خطب الجمعة والأعياد).

ISBN 978-99969-2-553-5

9 789996 925535 >

مؤسسة اللبان للنشر
AL-LABBAN PUBLISHING ESTABLISHMENT
سلطنة عمان - مسقط